الصديق في شعر البارودي

بين الواقع والخيال

دراسة موضوعية فنية

الدكتور/ علاء فؤاد عبد الفتاح

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالزقازيق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد ،،،

فهذا البحث في الصديق في شعر البارودي بين الواقع والخيال..

وهذا البحث وإن كان يتناول شاعراً مشهوراً كتب عنه الكثيرون من الأدباء والنقاد والباحثين إلا أنه جديد في موضوعه ، فلم نر باحثاً أو أديباً أو ناقداً تناول تلك الناحية عند البارودي على الرغم من أنها ذائعة وشائعة في شعره ذيوعاً وشيوعاً بارزاً..

حيث تحدث البارودي عن الصديق والصداقة وبين واجبات الصداقة، وتبعاتها وكل ما يتعلق بها، كتقلب الصديق واليأس من العثور على الصديق الوفي ، وتحدث عن تجربته هو شخصياً مع الأصدقاء الغادرين والأوفياء على السواء.

كما تحدث البارودي عن مفهوم الصديق الحق ، وصفات الصديق المثالي، وعرض لحالات الصداقة التي عرفها.

صحيح أن البارودي لم يفرد قصائد بعينها لهذا الموضوع إلا أن شعر الصداقة والصديق كان يلح عليه إلحاحاً واضحاً أثناء نظمه في الأغراض التقليدية من مدح وهجاء وغزل ورثاء وفخر وحكمة.

وبذلك يكون البارودي قد أكسب تلكم الأغراض الشعرية التقليدية خصوصية في موضوع الصداقة حيث إن مدح الصديق يختلف في معانيه عن مدح غيره ، وهجاء الصديق يختلف في معانيه وحدته عن هجاء غيره. وهكذا الأمر في الموضوعات الأخرى .

ومن ثمة رأينا الصداقة والقيام بواجباتها من معاني المديح عند البارودي ورأينا الوفاء والكرم والمساعدة والحب والإخلاص قيما تتكرر في مديح الأصدقاء .

وكذلك أضحت الصداقة معنى من معاني الفخر ، فلم يعد الفخر عند البارودي جزءاً من الفخر العام المعروف في الشعر العربي بل تعداه إلى الفخر بالوفاء والود والحب والتضحية والفداء وكرم الطباع وغيرها من المعاني التي تتردد في شعر الصداقة والصديق.

وهكذا كان الهجاء حيث رأينا البارودي ، يجرد من يهجوه من الأصدقاء من الفضائل ويتهمه بالخيانة وفساد الطوية وسوء النية والغدر والملق والنفاق والخداع وسوء الأخلاق، واللؤم والخسة.

وكذلك الحكمة ، حيث أضحت الصداقة من أكثر مضامين الأمثال والحكم اتساعاً وأهمية في شعر البارودي.

ومهما يكن من شيء فإن طبيعة الموضوع قد اقتضت تقسيمه إلى مقدمه وفصلين.

- المقدمة وفيها تحدثت عن أهمية الموضوع.
- والفصل الأول بعنوان الصديق في شعر البارودي دراسة موضوعية.

وفيه تحدثت عن:

- مفهوم الصديق لدى البارودي.
- ملامح الصديق الحق في الشعر البارودي.
- التحذير من الانخداع بالمظاهر الخادعة.
- الاختبار قبل الاختيار.
- الصديق بين الواقع والخيال في شعر البارودي.

- التحذير من صحبة الناس.
- زهو وفخار.
- من أصدقاء البارودي الأوفياء.

أما الفصل الثانى فعنوانه الصداقة والصديق في شعر البارودى دراسة فنية :

وشمل أربعة مباحث :.

المبحث الأول : الألفاظ والأساليب .

المبحث الثاني :المعاني.

المبحث الثالث: الصور والأخيلة.

المبحث الرابع : التشكيل الموسيقى .

ثم كانت الخاتمة التى سجلت فيها نتائج البحث وخلاصته.

وأخيرا كان فهرس المصادر والمراجع .

وإني لأرجو من الله التوفيق والسداد وأن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .،

" وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

ولله الأمر من قبل ومن بعد

الفصل الأول
الصديق في شعر البارودي
دراسة موضوعية

** مفهوم الصديق لدى البارودي:

يدور مفهوم الصداقة في شعر البارودي حول الوفاء والحفاظ والمساعدة والبذل والمواساة والجود والكرم والرعاية والنصيحة والمروءة وشرف الطباع ، وكرم الأصول ، وسلامة النفوس، والتوافق والتجاذب والتناسب بين الأرواح، حيث يقول البارودي :

ولا تصطحب إلا امرأ إن دعوته لدى جمرات الحرب لبَّاك واحتذى[1]
يسرك عند الأمن فضلاً وحكمة ويرضيك يوم الروع نبلاً مقذذاً[2]
فيا حبذا الخل الصفي، وهل أرى نصيباً من الدنيا إذا قلت حبذا[3]

فالصديق الحق في نظر البارودي من يسارع بتلبية نداء صاحبه ونصرته وقت الشدائد وهو الذي ينفع صاحبه في جميع الأوقات ، ففي الرخاء يغيض فضلاً وحكمة ، وفي الشدائد يؤازر صديقه وينصره.

ويقول البارودي في هذا الشأن أيضاً:

إذا المرء لم ينصر أخاه بنفسه لدى كل مكروه فليس بصاحب[4]

فالصاحب الحق: هو من ينصر أخاه وخاصة عندما يحتاج إليه وقت الشدائد والملمات ، أما من يخذل أخاه عند الاحتياج إليه ، فلا ينبغي أن

---

١ لدى جمرات الحرب: عند اتقاد نارها. لبَّاك: أجابك.

٢ يوم الروع : يوم الشدة والحرب ونحوهما. مقذذ: مسوى

٣ ديوان البارودي صـ١٩٣ تحقيق وشرح على الجارم، ومحمد شفيق معروف، ط/دار العودة، بيروت(١٩٨٨م).

٤ ديوان البارودي: صـ٧٠.

يتخذ صاحباً لأنه عند الشدائد تعرف الإخوان، وتتضح معالم الأشياء، وتستبين معادن الناس.

والصديق الحق هو من ينصح صاحبه في كل الأحوال نصحاً يستوجب الشكر عليه ، بل يشكر المنزل الذي يؤويه ، حيث يقول البارودي:

وإن أحق الأرض بالشكر منزل يكون به للمرء خِلٌ مناصح[1]

والصديق الحق أيضاً إذا رأى فاسداً في صديقه أصلحه بكل ما أوتي من قدرة وقوة وعزيمة وقد أشار إلى ذلك البارودي بقوله :

ليس من أسا مثل من جرح[2]
أين من رأي فاسداً صلح؟
كل من وشي سوف يفتضح[3]

والصديق الحق من يشعر بصاحبه في كل الأحوال ، وخير الأصحاب أنفعهم وداً لصاحبه إذ يقول البارودي:

يا رفيقي إذا عراني خطب ونصيري إذا خصيم تصدى[4]
أصبحت حاجتي إليك فخذ لي بحقوقي من ظالم قد تعدّى
فمن العار غض طرفك عني إن خير الصحاب أنفع وداً[5]

** ملامح الصديق في شعر البارودي:

رسم البارودي صورة الصديق المثالي من خلال عدة صفات حددها فيمن يقبله صديقاً أو فيمن يتخذ صديقاً على العموم ، وتنحصر تلك الصفات في كمال العقل، وكرم الفعل ، وشرف الأصول ، ومطابقة الظاهر للباطن،

---

١ المرجع السابق: صـ١٠٥.
٢ أسا الجرح بأسوه: داواه.
٣ ديوان البارودي صـ١١٢- ووشى: كذب وسعى بين الناس بالفساد
٤ الخطب: النازلة والشديدة من نوازل الدهر وشدائده، الخصيم: الخصم. تصدى له : تعرض
٥ ديوان البارودي صـ١٧٩

والوقار بلا كبر، والصفح بلا أذى ، والجود بلا مَنّ ، والحلم بلا ذل ، وأن يكون سليم القلب، عف اللسان ، كريم الطباع ، صادق الود ، وقبل ذلك كله أو بعده المشابهة في الروح والأفكار وشتى الخصال . وفيما يلي بيان ذلك:

١ –العقل:

العقل دليل على رزانة الإنسان وبه يُعرف الخير من الشر والعقل زينة للإنسان وبه فضل على غيره من المخلوقات.

والعقل: مصطلح يستعمل عادة لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري، خاصة تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعياً بشكل شخصي مثل: الشخصية، التفكير، الذاكرة، الذكاء، وحتى الانفعال العاطفي يعدها البعض ضمن وظائف العقل.

ويكفي أن علماء المسلمين حصروا المقاصد الضرورية والعامة للشريعة الإسلامية كلها في خمسة مقاصد قال عنها الشاطبي رحمه الله في الموافقات :"إن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة وهي: الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل، والمال "[١]

قال الجوهري: العقل، الحِجْر والنهى، وقيل إنه مشتق من عقال البعير، وهو الحبل الذي يُشد به وظيف البعير مع ذراعه في وسط الذراع[٢]

واعتقل :حَبَسَ، وعَقَلَهُ عن حاجته يَعْقِلَهُ وعَقِلَهُ وتعقله واعتقله: حبسه، والعقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، وسُمّي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أى يحبسه ، وقيل : العقل هو التمييز الذى به يتميز الإنسان من سائر الحيوان[٣]

---

١ راجع/ المقاصد العامة للشريعة الإسلامية : يوسف حامد العالم ، ط / المعهد العالمي للفكر الإسلامي (١٩٩٣م)صـ٨

٢ الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، ت/ أحمد عبد الغفور عطار ، الجزء الثالث ص١٧٦٩ ، ط/ دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م .

٣ لسان العرب لابن منظور، المجلد الأول ص ٣٠٤٦ ، ط/ دار المعارف بمصر ، د/ت .

يقول الراغب الأصفهاني: "العقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال: العلم الذي يستفيده بتلك القوة عقل، ثم قال وأصل العقل الاستمساك كعقل البعير بالعقال وعقل الدواء البطن ، وعقلت المرأة شعرها وعقل لسانه كفه ومنه قيل للحسن معقل وجمعه معاقل" [١].

ولقد عرف البارودي للعقل فضله ومنزلته في الإنسان حتى إنه رأى أن الإنسان بدون عقل مجرد شبح حيث يقول:

إن ابن آدم لولا عقله شبح مركب من عظام ذات أوصال [٢]

ومن ثم رغب البارودي في صحبة العاقل.

والنظر إلى عقل المرء، وفعاله ، مناط التفضيل بين الناس وبهما يوزن المرء ويقدر ، وفي ذلك يقول البارودي:

فانظر إلى عقل الفتى لا جسمه فالمرء يكبر بالفعال ويصغر

فلربما هزم الكتيبة واحد ولربما جلب الدنيئة معشر [٣]

ويقول أيضاً:

ليس تغني الألقاب عن كرم الأصـ ـل فمجد الفتى عفاف وعقل [٤]

حيث يؤكد البارودي أن المرء إنما يسمو ويعلو برجحان عقله وصحة تفكيره وسداد رأيه وشرف أصوله ، بالإضافة إلى عفته ونزاهته.

وقد أوضح البارودي أن للعقل دوره الهام في صيانة الود حيث قال:

إن لم يكن للفتى عقل يصون به علائق الود ضاعت ذمة الحرم [٥]

---

١ راجع المفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، كتاب العين وما يتصل بها الجزء الثاني ، ص ٤٤٥ ، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز .

٢ ديوان البارودي صـ٤٥٥.

٣ الكتيبة: الطائفة من الجيش مجتمعة. والدنيئة: النقيصة والعار. المعشر: جماعة من الناس .

٤ ديوان البارودي: صـ٥٠٠.

٥ ديوان البارودي صـ٦١٨.

فالعقل ميزان الأمور يساعد صاحبه على المحافظة على روابط المودة ورعاية العهود والمواثيق ، وبدونه يتخبط الإنسان وتضيع الحقوق وتتوه معالم الأشياء.

وفي المقابل نفر الشاعر من مصاحبة الجهلاء والأغبياء من الناس فالجاهلون قذى في العين ، وغصص في الصدر ، على حد قوله:

واجتنب كل غبي مائق فهو كالعير إن جد قمص[1]

إنما الجاهل في العين قذي حيثما كان وفي الصدر غصص[2]

كرم الأصول:-

ويعد كرم أصول المرء من أبرز الصفات التي يشترطها البارودي في الأصدقاء ، لأن هذا الكرم وذاك الشرف سينعكس بالطبع على الفروع وحتماً سيتأثر به ومن ثمة سيكون إنساناً سوياً لأنه جبل على المروءة والوفاء والعزة وشتى خصال الخير التي تعلمها من قومه أو تربى عليها في بيئته التي نشأ فيها ، وفي ذلك يقول البارودي:

ومن الرجال مناسب معروفة تزكوا مودتها ومنهم منكر[3]

ويقول:

والمرء مهما كان في أفعاله لا ينتهي إلا إلى أعراقه[4]

ويوضح البارودي أن الألقاب لا تغني عن كرم الأصل وشرف المنبت هذا بالإضافة إلى العفة والعقل فيقول:

ليس تغني الألقاب عن كرم الأصـ ـل فمجد الفتى عفاف وعقل[5]

---

١ مائق: أحمق غبي، سيء الخلق- العير :الحمار.قمص الحمار ونحوه. اضطرب في سيره واستن، وهو أن يرفع رجليه ويطرحها معاً.

٢ القذى: ما يقع في العين فيؤذيها، الغصص: مصدر غصصت بالطعام والشراب، والغصة ما غص به الإنسان من طعام. راجع ديوان البارودي صـ٢٩٧.

٣ المناسب المعروفة: الأنساب المشهورة. تزكو: تنمو وتزيد: راجع ديوان البارودي صـ٢٣٣.

٤ ديوان البارودي صـ٣٨٠.

٥ ديوان البارودي صـ٥٠٠.

ويؤكد البارودي أن للبيئة أثرها في النفوس ، وأنها ستعكس صورتها على من يعيشون فيها حيث يقول:

كيف لا تشمل الدناءة قوماً نشأوا في الصغار حين استهلوا[1]

فمن نشأ في الذلة والهوان وتربى على الدناءة والصغار فإنه حتماً ستشمله تلك الدناءة والضعة لا محالة.

فالإنسان يتبع أصوله ، ويفعل ما تربى عليه ونشأ فيه ولهذا فإن أفعال المرء تدل على أصوله حيث يقول البارودي في ذلك:

كل امرئٍ تابعٌ أعراق نبعته والخير والشر أنساب وأرحام[2]

فانظر لفعل الفتى تعرف مناسبه إن الفعال لأصل المرء إعلام[3]

ويقول أيضاً:

كل امرئ يجري على أعراقه والطبع ليس يحول في الإنسان[4]

وليس كرم الأصول وحده كفيلاً بتحصيل الشرف والكرامة والمروءة وإنما يجب أن تكون تلك الصفات متأصلة في داخل الإنسان وهذا ما افتخر به البارودي ، وحث عليه حين قال:

فإن ساد غيري بالجدود فإنني بهم وبفضلي رشت سهمي فما أشوى[5]

وليس علو النفس بالجد وحده وليس كمال المرء في شرف المأوى[1]

---

١ ديوان البارودي صـ٥٠٢.

٢ النبعة:مفرد النبع، وهو شجر ينبت في الجبال، تتخذ منه القسى والسهام ، وفلان كريم أي من أصل كريم على سبيل المجاز.

٣ المناسب: الأصول والأعراق، إعلام: إظهار، بمعنى أن أعمال المرء وتصرفاته تدل على أصله وعرقه.. راجع ديوان البارودي صـ٥٧٧.

٤ يحول: يتغير، ويتبدل ، ديوان البارودي صـ٦٤٧.

٥ ساد: عظم وشرف. المراد بفضله: فضائله، رشت سهمي فما أشوى: أي أعددت سهمي إعداداً تاماً للرماية فما أخطأ الهدف.

ويثور البارودي ثورة عنيفة في وجوه من يفتخرون بالجدود دون أن يحصلوا ما أحرزه الجدود من الأمجاد ، ويهيب بهم أن يجدوا في إحراز المجد وأن يفتخروا بأنفسهم حيث يقول:

حتام تفخر بالجدود ولم تنل ما أحرزت تلك الجدود الفاخرة؟
فاجعل لنفسك من فعالك شاهداً يغنيك عن ذكر العظام الناخرة[٢]

ويقول في موضوع آخر في نفس المعنى:

وما شرف الإنسان إلا بنفسه وإن كان ذا مال تليد ومطرف[٣]

ويقول كذلك:

ليس الصديق الذي تعلو مناسبه بل الصديق الذي تزكو شمائله[٤]
إن رابك الدهر لم تفشل عزائمه أو نابك الهم لم تفتر وسائله[٥]
يرعاك في حالتي بُعد ومقربة ولا تُغِبُّك من خير فواضله[٦]

**** كرم الطباع:**

الطبع ما طبع عليه الإنسان أو فطر عليه ، أو هو السلوك الذي ولد مع الإنسان وجبله الله عليه ، أما التطبع فهو محاولة تعويد وتدريب النفس على سلوكيات لم تعتد عليها ، ولا شك أن تعويد النفس على سلوكيات لإكسابها الطباع الحميدة يعد من مميزات التطبع.

---

١ شرف المأوى: مجد الآباء والأجداد والمعنى : ليس علو النفس في مجد الجدود وحده وليس كمال المرء في شرف المأوى وحده.. راجع ديوان البارودي صـ٣١٣

٢ ديوان البارودي صـ٢٦٦.

٣ ديوان البارودي صـ٣٤٥، تليد: قديم، مطرف : مستحدث.

٤ مناسبه: قرابته وأصوله. تزكو: تصلح. شمائله: طباعه وسجاياه.

٥ رابك: ساءك. لم تفشل عزائمه. لم تضعف همته. نابك: أصابك . لم تفتر: لم تضعف ولم تقصر. الوسائل : جمع الوسيلة. وهي الصلات الوثيقة التي بين الأصدقاء.

٦ يرعاك: يحفظك . لا تغبك: لا تنقطع عنك. الفواضل: جمع فاضله وهي النعمة العظيمة.. راجع ديوان البارودي صـ٤٩٣.

والطبع ما طبع عليه الإنسان منذ الصغر، وما حفره الأهل في أبنائهم من أخلاقيات وصفات حميدة ، أو ما تم اكتسابه من الطبيعة المحيطة منذ الصغر فيصبح طبعاً مثلاً الكرم أو البخل.

والتطبع محاولة الاتصاف بصفة ليست من أصل تركيبتنا الأولى ، وقد يكون أحياناً محاولة منا لإخفاء بعض الصفات الشخصية التي لا نحب أن نظهر بها أمام الآخرين مثل سرعة الغضب والانفعال ، فنحب أن نتطبع أو نتصنع بالهدوء فإذا احتد النقاش هنا يظهر طبعنا الغاضب دون أن ندري.

والطبع صفة ملازمة للإنسان يصعب التخلي عنها فمهما وصل الإنسان إلى أعلى مستويات التعليم فمن النادر أن يتخلى عن طبعه الذي جبل عليه: بخلاف التطبع ، فالطبع أصل ، والتطبع تقليد ، والطبع نرثه ، بينما التطبع نصنعه.

وما نعنيه هنا بكرم الطباع هو حسن الخلق ومكارم الأخلاق ، فالخلق هو السجية والطبع .

ولكل إنسان طبع يختلف عن غيره ، ينمو معه منذ الصغر، بعكس السلوكيات التي يكتسبها من أهله مثل احترام الآخرين وغيرها.

يقول البارودي في ذلك:

لو لم يكن في الطباع مختلف ما شذ عن طبع والدٍ ولدُ
ولو تساوى الرجال في خُلق لزال هذا الخلاف والحرد[1]
والناس شتى وإن هُمُ اجتمعوا في واحد ليس قبله أحد
فزائغ في الضلال منهمك وناسك في الصلاح مجتهد[2]

ويرى البارودي أن الطبع يطغى على صاحبه ولا يستطيع منه فكاكا حيث يقول يهجو أحد الأشخاص:

دع الفخار وخذ فيما خُلقت له من الصغار فإن الطبع إلزام[3]

---

١ الحرد : الغضب .

٢ زائغ: مائل منحرف. منهمك: منغمس لجوج. ناسك: عابد ، راجع ديوان البارودي ص١٨٥.

٣ ديوان البارودي صـ٥٧٩ .

وفي هذا يقول يحيى بن زياد[1]:

ولن يستطيع الدهر تغيير خُلقه لئيمٌ ولن يسطيعها متكرم

وفي نفس المعنى يقول سليمان بن المهاجر:

ومن يبتدع ما ليس فيه سجية يدعه ويغلبه على النفس خيمها[2]

فالطبع يلزم صاحبه مهما حاول تغييره فإنه لن يستطيع أبداً، ولذلك وجدنا البارودي يرغب في اختيار الصديق صاحب الطبع الكريم والأصل النبيل.

** التحذير من الانخداع بالمظاهر الخادعة:

ولطالما حذر البارودي من الانخداع بالمظاهر والطباع الخادعة فلربما أضمر الإنسان خلاف ما يظهر، حيث يقول :

فلا يغرنك من وجه بشاشته فالنار كامنة في ناخر السَّلم[3]

تغير الناس عما كنت أسمعه واستحكم الغدر في السادات والحشم[4]

وظل أعدل من تلقاه من رجل أعدى على الخلق من ذئب على غنم[5]

ويقول أيضاً:

ومن الناس من تراه سليماً وهو داء تدوي به الأفهام[6]

---

١ راجع / الحماسة لأبي عبادة البحتري، شرح محمود رضوان ديوب ط/ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)صـ٢٦٦.

٢ المرجع السابق صـ٢٦٦، والخيم: الطبيعة والسجية

٣ لا يغرنك: لا يخدعنك. بشاشة الوجه: تهلله وبشره وطلاقته. السلم : شجر شائك. وناخر السلم : القديم البالي.

٤ السادات : جمع سادة. الحشم: الخدم والعبيد. والاتباع. والمعنى أن الغدر والخيانة قد أشاعت بين الناس جميعهم على اختلاف طبقاتهم.

٥ راجع ديوان البارودي ص٦١٩.

٦ ديوان البارودي ص٦٢٢.

فبعض الناس نظنه سليم القلب والضمير ، سالماً من الضغائن والأحقاد، والعيوب والمثالب بينما هو ليس كذلك ، بل ربما كان داء يعدي ، ونلاحظ المبالغة الظاهرة في جعل البارودي ذلك الشخص الذي يخدع الناس بظاهره، الداء نفسه الذي يصيب الأفهام والعقول ، لأنه استطاع أن يخدعها بسلامة ظاهره .

ويمضي البارودي في التخدير من الانخداع بالمظاهر فيقول:

فلا تغرنك أشباه تمر بها هيهات ما كل طرف سابق أرنُ[1]

حيث يوضح البارودي أن الناس ليسوا سواء ، ومن ثم يحذر بما تشابه من ظواهرهم ، لأن الخيل متشابهة في الظاهر، ولكنها متفاوته ومختلفة فليس كل فرس نشيط جواداً سباقاً.

ويقول كذلك :

فإياك أن تنخدع بشيمة صاحب فمن ظن خيراً بالزمان فقد أكدى[2]
فقد طالما جربت خلا فما رعى وحلفا فما أوفى وعوناً فما أجدى
وما الناس إلا طالب غير واحد لما يبتغي أو واجد أخطأ القصدا
فلا تحسبن الناس أبناء شيمة فما كل ممدود الخطا بطلا جعدا[3]

** الاختبار قبل الاختيار :

ولئلا يقع الإنسان في شراك الانخداع بالمظاهر الكاذبة نصح البارودي بأن نلجأ إلى إخضاع الناس للتجارب والاختبار قبل المصادقة حتى تتبين حقيقتهم دون مواربة أو إخفاء فقال:

---

١ الطرف: بكسر فسكون الكريم من الخيل. أرن: نشيط – راجع ديوان البارودي ص٦٣٩.
٢ الشيمة: الطبيعة والخلق. أكدى: أخفق ولم يظفر بحاجته.
٣ الجعد: الكريم... راجع ديوان البارودي ص١٧٤.

وإياك والتسليم بالغيب قبل أن ترى حجة تجلو بها غامض الأمر
فقد يغدر الوفي لهفوة ويحلو الرضا بعد العداوة والشر
وفي الناس من تلقاه في زي عابد وللغدر في أحشائه عقرب تسري[1]
إذا أمكنته فرصة نزعت به إلي الشر أخلاق نبتن علي غمر[2]
ولا تحسبن الحلم يمنع أهله وقوع الأذي فالماء والنار من صخر
فهذي وصاتي فاحتفظها تفز بما تمنيت من نيل السعادة في الدهر
فإني امرؤ جربت دهري وزادني به خبرة صبري علي الحلو والمر
بلغت مدى خمسين وازددت سبعة جعلت بها أمشي علي قدم الخضر [3]

فالشاعر يحذر من الحكم علي الإنسان قبل أن يتفحصه في كل الأحوال ، لأنه ربما أضمر خلاف ما يظهر ، وتقلب الظروف والأحوال التي تمر بالإنسان كفيلة بإظهار حقيقته علي أصلها فلربما غدر الوفي ووفي غيره ولربما أضمر الشر من أظهر التقي والصلاح ، ولا عجب في ذلك فالماء والنار ضدان ولكنهما ينبعان من معين واحد وهو الصخر .

ويؤكد البارودي ذلك بقوله :

ولا تغرنك من وجه بشاشته فالسم يوجد في نضر من الشجر [4]
قد كدت أُتْهِمُ ظني في فراسته من طول ما اشتبهت عيناي في الصور[5]
فخذ لنفسك من دنياك ما سمحت به إليك وكن منها علي حذر [6]

---

١ الأحشاء : جمع حشا : ما حواه البطن والمراد بها هنا القلب والضمير حيث يكون الضغن والعداوة .
٢ نزعت به : مالت به وذهبت . الغمر : الحقد .
٣ الخضر : صاحب موسى عليهما السلام ... وراجع ديوان البارودي ص ٢٠٣ .
٤ نضر : نضير غصن أخضر .
٥ الفراسة : التثبت وصدق النظر ودقته وحسن التقدير للأمور .
٦ ديوان البارودي ص ٢٤٦

فالبارودي يؤكد علي عدم الاغترار بالبشاشة المصطنعة التي يخفي صاحبها وراءها الكثير من الغدر والشرور تماماً كما يحوى الورق الغض النضير في طياته السموم ،

ويمعن البارودي في التحذير من الانخداع بتلك المناظر البراقة والمظاهر الخادعة مؤكداً أنه علي الرغم من خبرته الطويلة بالناس وعلي الرغم من فراسته ونظراته الصائبة إلا أنه طالما خدع في الناس .

ويقول أيضاً :

ولا يغرنك بِشْر من أخي ملق فرونق الآل لا يشفي من الغلل[1]
لو يعلم المرء ما في الناس من دخن لبات من ود ذوي القربي علي دخل[2]
فلا تثق بوداد قبل معرفة فالكحل أشبه في العينين بالكَحَلِ [3]

حيث يحذر البارودي من الاندفاع والتسرع تجاه الأشخاص قبل معرفة دواخلهم فلا ينخدع الإنسان بملق المتملق وبشاشته المتكلفة التي هي كالسراب الذي لا يروي ظمأ.

ثم يحذر البارودي من الوثوق في مودة امرئ أو الاطمئنان الكامل إليه قبل تجريبه والوقوف علي حقيقة إخلاصه وصدقه ووفائه ، فقد يتشابه صادق الوداد وكاذبه كما يتشابه المصنوع والمطبوع من الكُحل والكحل .

ويلح البارودي في التأكيد علي ذلك بقوله :

ولا يغرنك وجه راق منظره فالنصل فيه المنايا وهو بسام [4]

---

١ الملق : الود الكاذب .. رونق الشيء : حسنه وبهاؤه . الآل : السراب .
الغلل : بفتح الغين واللام : شدة العطش .
٢ الدخن : بفتح الدال والخاء : الحقد الدفين وسوء الخلق . الدخل : الشك والريبة
٣ الكُحل : بضم الكاف معروف . أما الكحل بفتحتين سواد يعلو الجفون . راجع ديوان البارودي ص ٣٩٩
٤ راق : صفا وحسن . النصل : من الرمح ونحوه حده الذي لا يقطع .
المنايا : الموت . بسام : لامع ، براق . راجع ديوان البارودي ص ٥٧٨

وقد وضح البارودي أن الكلام الذي يصدر عن الإنسان يدل علي صاحبه من بلاغة ومنطق أو جهل وعي ، ويدل علي ما جهل من الطباع والأخلاق ، حيث قال :

تظن بعض القوم علامة وهو إذا ينطق هامُ ينوه [١]
لا تعرف المرء بأخلاقه في غمرة العالم حتى يفوه [٢]

فمن الناس من تظنه رزيناً عالماً فإذا تكلم ظهر جهله كبومة رفعت رأسها ثم صرخت ، ثم يطلع علينا البارودي بحكمته الرائعة التي مفادها أن أخلاق المرء لا تستبين إلا من خلال كلامه .

وقد تحدث الشعراء قديماً في الاستدلال علي عقل الرجل وحمقه بلسانه وكلامه حيث قال زهير بن أبي سلمي :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم [٣]

وقال مالك بن سلمة العبسي :

وفي الصمت ستر للعين وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما [٤]

وقال كعب بن سعد (الغنوي) :

إذا أنت جالست الرجال فلا يكن عليك لعورات الكلام سبيل [٥]

وينبغي التدقيق والفحص للإنسان قبل مصادقته لمعرفة أخلاقه وطباعه علي حقيقتها دون زيف أو تكلف حيث يقول البارودي :

واختبر من شئت تعرفه فما يعرف الأخلاق إلا من فحص [٦]

---

١ الهام : جمع هامة ، وهي البومة .
٢ ديوان البارودي ص ٧٠٨ .
٣ ديوان زهير بن أبى سلمى ، شرح / حمدو طماس ، ص٧١ ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية (١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥م) .
٤ حماسة البحتري : ص ٢٧٢ .
٥ حماسة البحتري : ص ٢٧١ .
٦ ديوان البارودي : ص ٢٩٨ .

ولاحظ معني كلمة فحص التي تعني البحث والتدقيق والتنقيب رغبة في الوصول إلي لُبِ الأشياء .

ويؤكد البارودي علي ذلك بقوله :

ونقب لتعلم غيب الأمور فإن من الحزم أن تتفحصا [١]

وتختلف طبائع البشر وتتباين أخلاقهم فمنهم من طبعه الود والوفاء ، ومنهم من جبل علي الغدر والخيانة ، وتتبين حقائقهم عن طريق الخبرة والعلم والمعرفة والاختبار ، وها هو ذا البارودي يقول في ذلك :

وفي الناس معطوف علي الود قلبه ومنهم سقيم العهد بادي التحرف [٢]

توسمت فيه الخير قبل لقائه وأحمدت منه الخبر بعد التعرف [٣]

وما حركات النفس إلا دلالة علي صدق ما قالوا به في التعيف [٤]

فقد تكذب العين الفتي وهو غافل ويصدق ظن العاقل المتشوف [٥]

ويؤكد البارودي علي ذلك بقوله :

فالناس أشباه وشتى بينهم تدنو الجسوم وتبعد الأخلاق [٦]

فاعرفهم واحذر تشابه أمرهم لا تستوي الأغلال والأطواق

حيث يوضح الشاعر أن الناس وإن تشابهوا في المظهر إلا أنهم يختلفون في الجوهر ، فقد تتشابه الأجسام ولكن تتفاوت الأخلاق والإنسان العاقل البصير ذو الخبرة من يستطيع أن يفرق بين الغث والثمين من الناس .

---

١ ديوان البارودي : ص ٢٩٨ .

٢ معطوف : مائل . سقيم : مريض .

٣ توسمت : تفرست .

٤ حركات النفس : صدق الظن . التعيف : التكهن بالشيء .

٥ المتشوف : من الطموح والتطلع إلي معرفة حقيقة الأشياء . راجع ديوان البارودي ص ٣٤٧.

٦ ديوان البارودي : ص ٣٦١ .

غير أن النظرة العجلي أو النظر إلي الوجوه لا يكون وحده فكرة أو لا يمكن من خلالها الحكم علي الإنسان بالطيبة أو اللؤم ، إذ إن تلك النظرة الخاطفة غالباً ما يجانبها الصواب ، وقديماً قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل [1]

ولذلك كان الاختبار ضرورياً لمعرفة حقيقة الأشخاص ولذلك عول عليه البارودي ، وجعله المحك في الحكم علي الأشخاص ، أو هو الأساس الأول من مقاييس الصداقة ، ولعل البارودي كون من ذلك الاختبار وطول التجارب ملكة قوية أصبح من خلالها يعرف حقيقة الأشياء من خلال النظرة الواحدة .

وقبل ذلك كله أو بعده تبقي هناك فراسة المؤمن التي تتبين من خلالها ملامح الأشياء ، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قول النبي صلي الله عليه وسلم " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يري بنور الله " .

وهذا أحد أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ينظر إلي امرأة في الطريق ، فتعجبه فيطيل النظر إليها ثم يدخل هذا الصحابي علي أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فيبادره بقوله " أما يستحى أحدكم أن يدخل علي أمير المؤمنين وفي عينيه آثار الزنا ؟ فيتعجب الصحابي ويبادر سيدنا عثمان بقوله : " أوحي نزل بعد رسول الله فيقول عثمان : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله " .

وأحسب أن البارودي أراد أن يستخدم الإنسان بصيرته مع بصره في الحكم علي الأشياء .

وتطلق البصيرة على نور القلب ، كما يطلق البصر علي نور العين .

وكما أننا لا نستطيع أن نبصر في الظلام حيث تنعدم الرؤية ، وتتشابه الأشياء أو أنها تصبح أشباحاً ، لا يمكن تمييز بعضها عن بعض فكذلك إذا

---

١ ديوان القطامي : ت / إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، ص٢٥، ط/ دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الاولى (١٩٦١م).

فقدنا البصيرة فإننا نتورط في التشخيص الخاطئ للأشخاص والأمور ، وهذا هو الفرق بين إنسان صاحب وعي وبصيرة وأخر مجرد منهما ، فالأول لا يمكن أن يقع ضحية الخداع والتغرير والتزوير والملق والنفاق ، بينما الثاني عرضة لذلك كله .

ولذا فقد عد القرآن رؤية البصيرة أهم من رؤية البصر وذلك في قوله تعالي : " فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور " [1].

وعلي هذا فصاحب البصيرة النافذة يمثل النموذج الأمثل للإنسان العاقل الذي يعي الواقع ويدركه ويعرف الناس من حوله ، ويميز بين صالحهم وطالحهم أو بين لئيمهم وكريمهم .

ولعل ذلك يؤكد أن البارودي كانت لديه القدرة الفائقة في التمييز بين الناس مهما حاولوا إخفاء طبائعهم ، سواء عن طريق التجربة والاختبار أو عن طريق الفطنة والكياسة والخبرة الواسعة .

وجاء علم النفس الحديث ليؤكد أن للجسد لغة لا يفهمها إلا كل ذي لب حاد ، وذكاء متقد ، وذهن لماح [2] .

وبذلك يعد البارودي ذا خبرة ودراية في فن التعامل مع الناس، كما كان رائداً في ميدان الشعر العربي الحديث .

** صحبة الأشباه :

المشاكلة في الطباع :

في لسان العرب [3] الشَّكل بالفتح : الشبه والمثل والجمع أشكال وشكول وأنشد أبو عبيد :

---

١ سورة الحج : الآية ٤٦.

٢ راجع في ذلك لغة الجسد : آلان ، باربارا بيز ط / مكتبة جرير/(السعودية) الطبعة الرابعة ٢٠٠٩ ودع جسدك يتكلم بالنيابة عنك هارفي بلومون، ط/ مكتبة الهلال (٢٠١٠) وقراءة لغة الوجوه : ناعومي آر . تيكل ط / مكتبة جرير د/ت

٣ راجع لسان العرب لابن منظور: تحقيق/ عبد الله على الكبير وآخرين،ط/ دار المعارف بمصر، د/ت .

فلا تطلبا لي أيّما إن طلبتما فإن الأيامي لسن لي بشكول

وقد تشاكل الشيئان ، وشاكل كل واحد منهما صاحبه .

وفلان شكل فلان أي مثله في حالاته .

ويقال : هذا من شكل هذا أي من ضربه ونحوه ، وهذا أشكل بهذا أي أشبه .

والمشاكلة : الموافقة . والتشاكل مثله .

والشاكلة الناحية والطريقة ، وشاكلة الإنسان شكله وناحيته وطريقته ، ومنه قوله تعالي " قل كل يعمل علي شاكلته " [1] أي علي طريقته ومذهبه ، وخليقته .

والمشاكل من الأمور : ما وافق فاعله ونظيره .

وعلي هذا فإن مادة شكل تدور حول الموافقة والمماثلة والمشابهة : وكلما كان الصديقان متشاكلان ومتوافقان في الطباع كان الود أوثق .

قال الأوزاعي : " الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب إذا لم تكن مثله شانته ، فالتمسه مشاكلاً " [2]

ومنه قول الشاعر :

وما صاحب الإنسان إلا كرقعة علي ثوبه فليتخذه مشاكلاً

ويرى البارودي أن من العار صحبة الإنسان من لا يشاكله ويشابهه في الجوهر والطباع حيث يقول :

من العار أن يرضي الفتي غير طبعه وأن يصحب الإنسان من لا يشاكل [3]

والموائمة والمناسبة والمشابهة بين الأصدقاء تصبغ الحياة بالمودة والإخاء الصادق والسعادة ، والهناءة والسرور ، وفي ذلك يقول البارودي:

---

١ الإسراء : من الآية (٨٤) .

٢ راجع البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي ٥ / ٣٦ تحقيق د / وداد القاضي ، ط / دار صادر بيروت ، الطبعة الأولي ، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) .

٣ ديوان البارودي : ص ٤٣٤ .

وما تحسن الأيام إلا بأهلها ولا الدار إلا بالصديق الملائم [1]

ويذهب البارودي إلي أن المودة لا تنحصر في القربى فحسب ، فقد يكون الغريب أحسن علي الإنسان من القريب في بعض الأحايين ، فليس المهم أن يكون الود في القرابة وإنما المهم توافق الطباع والملائمة بين الأصدقاء حيث يقول :

ورُبَّ بعيد الدار يصفيك وده ومقترب يجني عليك ولم تجن [2]

وما الود في القربى وإن هي أوجبت ولكنه في الطبع والشكل والوزن [3]

إذا لم يكن بين الوديدين خُلّة فلا أدب يجدي ولا نسب يدني [4]

وقديماً قالوا : القريب من قرب نفعه، وقالوا كذلك : رب بعيد أقرب من قريب ، وقال بعض البلغاء : ما رأيت كتقارب القلوب ، وقال أكثم بن صيفي " القرابة تحتاج إلي مودة والمودة لا تحتاج إلي قرابة " ، وقال عبد الله بن عباس ، القرابة تقطع والمعروف يكفر وما رأيت كتقارب القلوب " [5]

وفي ذلك يقول العتابي : [6]

إني بلوت الناس في حالاتهم وخبرت ما وصلوا من الأنساب

---

١ ديوان البارودي : ص ٥٤١ .

٢ المقصود ببعيد الدار هنا : الصديق الذي تربطه بصديقه صلة رحم .
أصفاه الود : أخلصه له . جني عليه : أجرم في حقه أذنب وأساء إليه

٣ القربى والقرابة : صلة النسب . أوجب : جعله واجباً ولازماً .
المقصود بالطبع والوزن والشكل : التوافق التام بين الأصدقاء .

٤ الوديد : المحب . الخلة : بضم الخاء : الصداقة . أجدى : نفع وأفاد . يدني : يقرب ، راجع ديوان البارودي : ص ٦٣٣ .

٥ راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢٥ .

٦ اسمه كلثوم بن عمرو وهو شاعر عباسي من بني تغلب من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي ، ويكني أبا عمرو من أهل قنسرين من ناحية حمص ومن ساكني بغداد . راجع ترجمته في : طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٦١ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط / دار المعارف بمصر .

فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أقرب الأنساب [1]

ولحمة الأدب ورباط الود قد يكون أقوى من رابطة النسب ، وائتلاف النفوس وتلاقيها أجل من تلاقي الأجسام الذي ربما لا يدوم ، يقول البارودي يمدح صديقاً له [2]

جمعتنا الآداب قبل التلاقي بنسيم الأرواح قبل الأجسام

وبلغنا بالود ما لم ينله بحياة القربى ذووا الأرحام [3]

ويرى البارودي أن المودة إذا صحت وصفت بين الأصدقاء ، صارت كالنسب تماماً ، بل ربما غدت أقوى من رابطة القرابة والنسب حيث يقول :

إن المودة إن صحت غدت نسباً بين الأباعد تغنيهم عن الرحم [4]

وهكذا فإن المماثلة والمشابهة في الطباع والود الصادق بين الأصدقاء له أثره في النفوس وفي تأصيل وتقوية روابط المحبة فيما بينهم .

---

١ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١٣ تحقيق د / إحسان عباس ص ٨٠ ط / دار صادق ، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .

٢ القصيدة في مدح : شكيب أرسلان .

٣ ديوان البارودي : ص ٥٥١ .

٤ ديوان البارودي : ص ٥٩٧ .

** الصديق في شعر البارودي بين الواقع والخيال :

ذهب البارودي في غير موضع إلي أن الصديق الحق غير موجود في هذا الوجود أو بالأحرى أنه يستحيل العثور علي الصديق الصدوق في ذلكم الزمان الذي طغت فيه المادة علي القلوب وغاض فيه الوفاء وندر فيه الأوفياء .

يقول البارودي :

ولقد بلوت الناس في أطوارهم ... ومللتُ حتى ملني الإبلاء [1]
فإذا المودة خلة مكذوبة ... بين البرية والوفاء رياء [2]
كيف الوثوق بذمة من صاحب ... وبكل قلب نقطة سوداء
لو كان في الدنيا وداد صادق ... ما حال بين الخُلتين جفاء
فانفض يديك من الزمان وأهله ... فالسعي في طلب الصديق هباء [3]

وترى كيف تسيطر النظرة السوداوية علي البارودي فالمودة لا وجود لها، والوفاء رياء ، والقلوب سوداء ، والسعي في طلب الصديق هباء ومضيعة للجهد والوقت ، لأنه لا وجود له .

ويقول البارودي :

فمن لي بخل أستعين بقربه ... علي أمل لم يبق إلا شريده [4]
أحاول ودا لا يشان بغدره ... ودون الذي أرجو ما لا أريده [5]
سمعت قديماً بالوفاء فليتني ... علمت علي الأيام أين وجوده [6]

وتلاحظ الاستفهامات التي غلف بها البارودي أسلوبه والتي تفيد التحسر والاستبعاد في آن واحد .

---

١ الإبلاء : مصدر أبليته بمعني بلوته وامتحنته .
٢ الخلة : الخصلة . رياء : نفاق .
٣ ديوان البارودي : ص ٤٠ .
٤ أمل شريده : بعيد المنال .
٥ لا يشان : لا يعاب . الغدرة : اسم مرة من الغدر وهو نقص العهد وعدم الوفاء .
٦ ديوان البارودي : ص ١٤٩ .

ويقول البارودي في موضع آخر :

لعمري لقد ناديت لو أن سامعاً ونوهت بالأحرار لو أن منقذاً
وطوَّفت بالآفاق حتى كأنني أحاول من هذي البسيطة منفذا
فما وقعت عيني علي غير أحمق غوي يظن المجد في الري والغِذا [1]

فالبارودي قد بح صوته وخاب سعيه في البحث عن الصديق الوفي ، وعاد بخفي حنين يجرجر أذيال الحسرة إذ لم يجد غير الحمقى والتافهين من الناس.

ويرنو البارودي إلي مصاحبة صديق وفيٍّ يعينه علي همومه ويكفيه مؤونة الحياة ، فيقول :

قليل بآداب المودة من يفي فمن لي بخل أصطفيه وأكتفي؟ [2]
بلوت بني الدنيا فلم أر صاحباً يدوم علي ود بغير تكلف فهل
من فتي يسرو عن القلب همه بشيمة مطبوع علي المجد مسعف[3]
رضيت بمن لا تشتهي النفس قربه ومن لم يجد مندوحة يتكلف [4]
ولو أنني صادفت خلاً يسرني علي عدواء الدار لم أتلهف [5]

ويقول كذلك :

لأي خليل في الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خِبٌّ منافق [6]
بلوتُ بني الدنيا فلم أر صادقاً فأين لعمري الأكرمون الأصادق
أحاول أمراً قصَّرت دونه النهي وشابت ولم تبلغ مداه المفارق [7]

---

١ أحمق : قليل العقل . غوي : ضال . الغذا : الغذاء الري : الشراب
راجع ديوان البارودي ص ١٩٣ .
٢ آداب المروءة : محامدها ومقتضياتها .
٣ يسرو : يكشف ويزيل . مطبوع : مفطور .
٤ مندوحة : سعة وفسحة .
٥ عدواء الدار : بعدها .... راجع ديوان البارودي ص ٣٤٣ .
٦ الخب : الخدَّاع .
٧ حاولت الشيء : عالجته واحتلت في طلبه . النهي : العقول .
مداه : غايته ومنتهاه . المفارق : جمع مفرق وهو وسط الرأس حيث يفرق الشعر

وأعظم ما ترجوه ما لا تنالـه وأكثر من تلقاه من لا يوافـق [1]

فالبـارودي قـد أعيـاه البحـث ، وكثـرة التجـارب ولـم ينـل مـا يبحـث عنـه مـن الـوداد الصـادق ، وأصبح النـاس فـي نظره بين رجلين إما خب خداع منـافق وإما غير مشاكل له في الطباع .

ونلاحظ أن البارودي يوضح أنه جد في البحث والتنقيب طويلاً ، ولكن هيهات هيهات فذلك أمر بعيد المنال .

ويوضح البارودي أن أقصى أمانيه في ذاك الوجود أن يعثر علي صديق حر كريم طيب شريف ، يقيم الود ، يدين بالوفاء ، ويصدق الإخاء حيث يقول :

لم يبق لي أَربُ في الدهر أطلبه إلا صحـابة حُرٍّ صادق الخال [2]

وأين أدرك ما أبغيه من وطـر والصدق في الدهر أعيا كل مختال

لا في سرنديب لي ألف أجاذبه فضل الحديث ، ولا خل فيرعي لي [3]

وإذا علمنا أن تلكم القصيدة من شعر البارودي الذي قالـه فـي منفـاه أدركنـا أهمية الصديق بالنسبة للبارودي وخاصة في تلك المرحلة ، وهي المؤانسة وتخفيف آلام الغربة عنه والمشاركة الوجدانية له آنذاك ، ولكن أنـي لـه ذلك وقد عز الصدق وندر الصديق .؟

ويؤكد البارودي ذلك المعني بقوله :

بمن يثق الإنسان والغدر شيمةُ لكل ابن أنثي والوفاء عقيم [4]

وتلمح الأسي والحسرة والحزن في أسلوب البارودي ، فلقد غدا الغدر شيمة كل الناس ، وأصبح الوفاء عقيما .

وفـي موضـع أخـر نـرى البـارودي يسـتبعد أو ينفـي وجـود الحـر الكـريم مـن الناس الذي يأسر الأحرار بشيمه النبيلة من بر ووفاء وصدق ووداد وما ذاك

---

١ ديوان البارودي : ص ٣٧٦ .

٢ الأرب : الحاجة . الخال : الظن .

٣ ديوان البارودي : ص ٤٤٩ سرنديب : سيلان وهي منفاه . ألف : أليف مؤانس .

٤ ديوان البارودي : ص ٥٩٦ .

إلا لأن الغدر تأصل في نفوس البشر وأصبح داءً عضالاً لا علاج له ، علي حد قول البارودي :

وأين من تملك الأحرار شيمته والغدر في الناس غير منحسم
فانفض يديك من الدنيا فلست تري خلاً وفياً وعهداً غير منصرم
هيهات لم يبق في الدنيا أخو ثقة يرعي المودة أو يلقي يد السلم [1]

** التحذير من صحبة الناس :

من أجل ذلك كله راح البارودي يحذرنا من صحبة الناس لما تنطوي عليه نفوسهم من الملق والغدر والنفاق حيث قال :

ومن الناس من تراه سليما وبه للحقود داء عياءُ
فاحذر الناس ما استطعت فإن النـ ـاس إلا اقلهم أعداءُ [2]

وقال أيضاً موضحاً أن الناس ملازمون للخداع :

واحذر الناس ما استطعت فإن النـ ـاس أحلاسُ خُدعة وتعادي [3]

ويؤكد أن الود لا وجود له بين الناس ومن ثم ينبغي البعد عنهم فيقول :

فلا تطلبن في الناس مثقال ذرة من الوُدِّ أُمَّ الوُدِّ في الناس هابل [4]

والناس في نظر البارودي بين رجلين حاسد كائد ، وخبيث ماكر فاسد الطوية وهم كذلك منقادون للأهواء سماعون لكل لغو وكذب ، وأسرع في تصديق الأباطيل دون تحقيق أو تثبت حيث يقول :

فما الناس إلا حاسد ذو مكيدة وآخر محني الضلوع علي دَخْلِ
تِباع هوى يمشون فيه كما مشي وسَمَّاع لغو يكتبون كما يملي [5]

---

١ ديوان البارودي : ص ٦١٨ وما بعدها .
٢ ديوان البارودي : ص ٤٨ .
٣ ديوان البارودي : ص ١٥١ وأحلاس : جمع حلس وهو كساء يوضع علي ظهر البعير والفرس ونحوهما . وأحلاس خدعة : ملازمون للخداع .
٤ ديوان البارودي : ص ٤٣٤ وهابل : اسم فاعل من هبلته أمه أي ثكلته وفقدته .
٥ ديوان البارودي : ص ٤٤١ .

ويرى البارودي أن مغالاة الناس في كرههم الموت وحبهم الحياة أفقدهم اليقين والثقة بالنفس وعميت عليهم حقائق الأشياء ، وجروا خلف الظنون والأوهام والأباطيل حيث يقول :

لا تحسب الناس في الدنيا علي ثقة من أمرهم بل علي ظن وتخييل
حب الحياة وبغض الموت أورثهم جبن الطباع وتصديق الأباطيل [1]

والمعنى مأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :عندما سئل عن الوهن ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت .

ويثور البارودي ثورة عارمة ويوضح أنه يقيم وسط أناس يسودهم النفاق والجهل والفسوق ويملأ قلوبهم الغيظ والحقد والغدر ، فيقول :

أضعت زماني بين قوم لو أن لي بهم غيرهم ما أرهقتني البوائق
فإن أك ملقي الرحل فيهم فإنني لهم بالخلال الصالحات مفارق
معاشر سادوا بالنفاق وما لهم أصول أظلتها فروع بواسق
فأعلمهم عن الخصومة جاهل وأتقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر ونغمة ود بينها الغدر ناعق
وأخلاق صبيان إذا ما بلوتهم علمت بأن الجهل في الناس نافق [2]

هؤلاء هم الناس الذين عاش بينهم البارودي حيث الملق والغدر والنفاق والخداع والغش والطيش والسفه ، ولعل هؤلاء هم الذين لونوا نظرة شاعرناً للحياة والأحياء بصبغة داكنة السواد .

وحتى لا يتهم البارودي بالمغالاة ، وأن العيب فيه هو ، وأنه لم يستطع التكيف مع الناس وجدناه يؤكد علي أن رأيه في الناس جاء بعد طول اختبار وتجارب واسعة ، حيث قال :

أنا في زمان غادر ومعاشر يتلونون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب منهم وإخوة محضر ورخاء

١ ديوان البارودي : ص ٤٩١ وما بعدها .
٢ ديوان البارودي : ص ٣٧٧ .

أقبح بهم قوماً بلوت إخاءهم فبلـوت أقبح ذمة وإخاء
قد أصبحوا للدهر سبة ناقم في كل مصدر محنة وبلاء [1]

فهو يؤكد لنا بعد طول اختبار أن الناس متلونون وأنهم أساس كل محنة وبلاء ، لا عهد لهم ولا أمان .

ومن هنا رأينا البارودي ينادي باعتزال الناس ومصاحبة النفس حيث قال:

ولست بطالب في الناس خلا يناصحني فعقلي قد كفاني [2]

وقال أيضاً :

فتفرد تعش بنفسك حراً رُبَّ فرد يخشاه جيش لهام [3]

وقال كذلك :

وعش فرداً فما في الناس خلُ يسرك في بعاد واقتراب [4]

وها هو ذا البارودي يعلنها صريحة مدوية أنه سئم العيش بين الناس فيقول :

بلوتهم فسئمت العيش وانصرفت نفسي عن الناس حتى ليس لي شجن
فإن يكن فاتني ما كنت أملكه فالبعد عنهم لما أتلفْتُه ثمن
كفي بحرب النَّوى سلما نجوت به ورب مخشية في طيّها أَمَن [5]

فالبارودي قد انصرف عن الناس معتزلاً إياهم بعد ما جربهم ووجدهم لا يرعون الوداد ولا يحفظون الأسرار ، ويبين أنه وجد الراحة والطمأنينة في عزلته عن الناس وبعده عنهم ، تاركاً ماله ومتاعه وإنه ليشكر غربته التي أبعدته عن هؤلاء الناس الغادرين .

---

١ ديوان البارودي : ص ٤٤ .
٢ ديوان البارودي : ص ٦٤٩ .
٣ ديوان البارودي : ص ٦٢٣ وجيش لهام : عظيم كثير قوي .
٤ ديوان البارودي : ص ٦٦ .
٥ ديوان البارودي : ص ٦٤٢ .

ولعل ذلك يذكرنا بموقف الشنفري من قومه حينما اعتزل الناس قائلاً :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلي قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلي متعزل [1]

ولكن إذا كان الشنفري قد هجر قومه برغبته هو ، فإن البارودي قد طرد ونفي وأبعد .. ورب ضارة نافعة فقد حمد البارودي هذا الصنيع لأنه ساعده في البعد عن ذوي القلوب المريضة " فرب مخشية في طيها أمن " كما قال هو .

**** زهو وفخار :**

في الوقت الذي نعي فيه البارودي الوفاء وأهله راح يفخر بوفائه النادر ووداده الصادق ، وحفاظه علي العهود والمواثيق ومراعاة حقوق الأخوة حيث قال :

تَبعْتُ خُطة أبائي فسرتُ بها علي وتيرة آداب وآسال [2]
فما يمر خيال الغدر في خلدي ولا تلوح سمات الشر في خيالي

حيث يفخر البارودي بأنه ينهج نهج آبائه ويسير علي ما ورثه عنهم من الآداب الرفيعة والأخلاق الكريمة والشمائل العالية ، وفي البيت الثاني نرى البارودي ينفي عن نفسه الغدر بخاصة وضروب الشر بعامة .

ونلاحظ قوة الأسلوب الذي يؤكد بعده عن الغدر والشرور تماماً ، فهو لا يكاد يتصور الغدر أو يتخيله أو يفكر فيه مما يعني أنه صاحب صدق ووفاء وخير وبر واستقامة وأمانة .

---

١ ديوان الشنفري : تحقيق وشرح د/ إميل يعقوب ، ط/ دارا لكتاب العربي ، بيروت الطبعة الثانية (١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ص ٩٨ .

٢ الوتيرة : الطريقة المطردة والمداومة علي الشيء . آسال : أخلاق وشمائل .

ويؤكد ذلك كله بقوله :

قلبي سليم ونفسي حرة ويدي مأمونة ولساني غير خَتَّال [1]

فهو ينفي عن نفسه الخداع في جميع أشكاله وصوره ويؤكد علي صراحته وصدقه ووضوحه وكرامته وعزته وإبائه وأمانته .

وقال :

إني امرؤ ملك الوداد قيادتي وجرى علي صدق العهود وفائي

لا أستريح إلي السلو ولو جنى خِلِّي عليّ ولا أشينُ ولائي

لا ذمتي رهن الفكاك ولا يدي تلقي أزمة عفتي وحبائي [2]

ويقول أيضاً :

واختبرني تجد صديقاً حميماً لم تغير وداده الأهواء

صادقاً في الذي يقول وإن ضا قت عليه برحبها الدهناء [3]

ويقول كذلك مؤكداً أن حب الوفاء طبع من طبائعه التي تلازمه في كل حين ، حيث إنه لا خير في قلب لا يدوم له وفاء .

ومن شيمي حيث الوفاء سجية وما خير قلب لا يدوم له عهد ؟ [4]

ولعل الاستفهام الإنكاري الذي ختم به البارودي البيت يؤكد علي المعني المراد من أن الإنسان بلا وفاء لا خير فيه ، وفي نفس الوقت يؤكد الوفاء النادر للبارودي ومدى إيمانه بهذا الوفاء .

وراح البارودي يؤكد أن من شيمته وطبعه بذل الوفاء وأنه ينافس في ذلك ، وكلنا يعرف أن المنافسة تقتضي التجويد والإتقان والإصرار والعزيمة والتميز حيث يقول :

---

١ ديوان البارودي : ص ٤٤٨

٢ ديوان البارودي : ص ٤٤

٣ رحبها : سعتها . الدهناء : الفلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة . راجع ديوان البارودي ص ٤٨

٤ ديوان البارودي : ص ١٤٠ .

ومن شيمي بذل الوداد لأهله كذلك إني في الوداد أنافس [1]

ولكننا نلاحظ هنا في البيت السابق أن البارودي قيد بذل الوفاء لمن يستحقه (لأهله) فحسب ، وكأنه يجازي بالوفاء وفاءَ ، أما إذا غدر الصديق فله معه شأن آخر يوضحه البارودي في قوله :

أضن بصاحبي وأذود عنه وأمنحه السوية في الحقوق
وإن غدر الزمان به فإني أقوم بنصرة فِعْلَ الصديق
إذا ما المرء لم ينفع أخاه علي الحالين في سعة وضيق
فدعه غير مأسوف عليه فخير منه إخوان الطريق [2]

وفي موضع أخر يقول :

أنا للصديق كما يحب وللعدا عند الكريهة ضيغم زأر [3]

فهو ودود ،وفي، لمن وفي من الأصدقاء، أسد قوي ، شجاع في وجوه الأعداء .

---

١ ديوان البارودي : ص ٢٨٧ .
٢ ديوان البارودي : ص ٣٨٠ .
٣ ديوان البارودي : ص ٢٣٥ .

**** معاملة البارودي للناس بين المداراة والتغابي والمروءة :**

وتارة أخرى نرى البارودي يميل إلي التوسط في معاملة الناس وهو ما يعرف بالمداراة وهي مصاحبة الناس علي علاتهم وعدم إظهار التبرم بهم أو السخط عليهم ومسايرتهم في جميع أحوالهم ، حيث يقول :

أضاحك وجه المرء يغشاه بشره واعلم أن القلب تغلي حقوده
ومن لم يدار الناس عاداه صحبه وأنكره من قومه من يسوده
أحاول وداً لا يشان بغدره ودون الذي أرجوه ما لا أريده [1]

ويقول كذلك :

ودار الذي ترجو وتخشي وداده وكن من مودات القلوب علي حذر
فقد يغدر الخل الوفي لهفوة ويحلو الرضا بعد العداوة والشر [2]

وفي نفس المعني يقول البارودي :

قليل من يدوم على الوداد فلا تحفل بقرب أو بعاد
إذا كان التغير في الليالي فكيف يدوم ود في فؤاد ؟
ومن لك أن ترى قلباً نقيا ولما يخل قلب من سواد ؟
فلا تبذل هواك إلي خليل تظن به الوفاء ولا تُعادِ
وكن متوسطا في كل حال لتأمن ما تخاف من العناد
مداراة الرجال أخف وطئاً علي الإنسان من حرب الفساد
يعيش المرء محبوباً إذا ما نحا في سيره قصد السداد [3]

والتوسط في الحب أو البغض الذى أشار إليه البارودي في الأبيات السابقة مأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه :" أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما. "

---

١ ديوان البارودي : ص ١٤٩ .
٢ ديوان البارودي : ص ٢٠٣ .
٣ ديوان البارودي : ص ١٨٧ .

ونرى الشاعر منذ البيت الأول في قصيدته وهو يسلي نفسه بالحكمة التي أرسلها والتي مفادها أن الوفاء قليل في الناس وأن التغير سنة الأشياء ومن ثم فلا ينبغي للإنسان أن يأسي لما قد يقابله من تغير في الناس .

ولكن وإن كنا نوافق البارودي علي التوسط في الأمور خير للإنسان من الغلو والشطط وإن ذلكم التوسط سبيل الراحة والأمن والاستقرار فإننا لا نوافقه قوله :

مداراة الرجال أخف وطئاً علي الإنسان من حرب الفساد

صحيح أن المداراة أخف وطئاً من المواجهة للمشاكل والفساد ، ولكن ذلك يدعو إلي السلبية والنفاق وعدم المبالاة وذلك ما يأباه كل ذي طبع أصيل غيور علي نفسه وقومه .

وربما قصد البارودي بالمداراة التغابي أو التغافل أو التظاهر بعدم العلم حتى لا يعكر صفو الوداد حسبما صرح في بعض أبياته أنه يضطر أحياناً إلي معاشرة الناس علي طريقة التغابي أو ما جبل عليه من المروءة والوفاء حيث قال :

حلبت الدهر أشطره مليا وذقت العيش من أَرْي وصاب [1]
فما أبصرت في الإخوان ندباً يجل عن الملامة والعتاب [2]
ولكنا نعاشر من لقينا علي حكم المروءة والتغابي [3]

ويوضح لنا البارودي أن هناك الكثير من الأصدقاء المنافقين الذين يضمرون الأحقاد في صدورهم فهم الأعداء في ثياب الأصدقاء مثل هؤلاء يعاملهم البارودي بالحسنى أو يظهر لهم الحسنى ويؤكد لنا أن ذلك من الحزم في معالجة الأمور فيقول :

---

١ حلبت الدهر أشطره : مررت بخيره وشره . ملياً : زماناً طويلاً . الأري : العسل الصاب : شجر مر والمراد حلو الحياة ومرها .
٢ الندب : المهذب الكامل .
٣ التغابي : التغافل .... راجع ديوان البارودي ص ٦٦ .

فكم صاحب ألقاه يحمل صدره فؤاد عدو في ثياب مسالم
أغالطه قولي وأمحضه الوفا كأني بما في صدره غير عالم
ومن لم يغالط في الزمان عدوه ويبدي له الحسنى فليس بحازم [1]

فالبارودي يري أن المداراة والتظاهر بالرضا والتغاضي عن الزلات كل ذلك نوع من الحزم الذي يدل علي حنكة صاحبه وخبرته في الحياة والأحياء .

ويؤكد علي ذلك بقوله :

ليس يخفي عليّ شيء ولكن أتغابي والحزم إلف التغابي [2]

فالبارودي يصرح بأنه خبير بدقائق الأمور ولا يخفي عليه حال أصحابه ، ولكنه يتغافل ويظهر الغباوة ويرى أن ذلك من الحزم والفطنة .

وقديماً قال الشاعر :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وربما كان هذا التغابي عندما يعجز الإنسان عن الإصلاح أو التوجيه ، يقول البارودي :

إذا ما رأيت الشيء في غير أهله ولم أستطع رداً طرفت علي قذي [3]

وتارة ثالثة نرى البارودي ثائراً يتنصل من أصحابه غير الأوفياء الذين لا يجدي معهم أي عتاب حيث يقول :

إني إذا ما الخل خاس بعهده بعد الوداد فلست من أصحابه [4]

وإذا عتبت عليه ثم لم يعد عن غيه لم أكترث لعتابه [5]

---

١ ديوان البارودي : ص ٥٢١ .
٢ ديوان البارودي : ص ٦٩ .
٣ ديوان البارودي : ص ١٩٣ .
٤ خاس بالعهد : غدر ونكث .
٥ ديوان البارودي : ص ٨٢ .

**** من أصدقاء البارودي الأوفياء :**

وما يتصل بهذا الصدد الحديث عن نماذج رائعة من الأصدقاء ضربوا أروع المثل في الوفاء والصدق والإخلاص ومراعاة حقوق الصداقة .

ومن هؤلاء الأصدقاء الأوفياء (عبد الله باشا فكري) [1] الذي كان يجله البارودي ويعتبره موضع سره ، يفي بالعهد ويصون الود في كل الأحوال ، حيث يقول البارودي في وصفه وثنائه عليه :

أخي وصديقي وابن ودي وصاحبي وموضع سري حين يعتلج الصدر [2]
هو الصاحب المشكور في الود سعيه وما خير ود ليس يلحقه شكر ؟
أمين علي غيب الصديق إذا ونت عهود أناس أو تطرّقها فتر [3]

ونلاحظ في البيت الأول أن البارودي جمع كل صفات الصديق الوفي فهو الأخ وهو الصديق وهو الصاحب وهو مستودع الأسرار وهي الصفات التي طالما تشكي البارودي بافتقاد أغلب الناس لها .

ويُعَدُّ الأمير شكيب أرسلان [4] من الأصدقاء الأوفياء الذين تغني البارودي بوفائهم النادر ووداهم الصادق حيث يقول :

هو خل لبست منه خلالاً عبقات كالنور في الأكمام [5]
صادق الود لا يخيس بعهد وقليل في الناس رعيُ الذمام
جمعتنا الآداب قبل التلاقي بنسيم الأرواح لا الأجسام
وبلغنا بالود ما لم ينله بحياة القربى ذووا الأرحام

---

١ عبد الله باشا فكري (١٢٥٠ – ١٣٠٧ هـ / ١٨٣٤ – ١٨٩٠ م) كاتب وشاعر أديب تعلم بالأزهر ، وأجاد اللغتين العربية والتركية ، عمل مترجماً ثم انتقل إلي حاشية سعيد باشا ثم إسماعيل باشا ، ثم تقلب في جملة مناصب آخرها نظارة المعارف في وزارة " البارودي " .

٢ يعتلج الصدر : تضطرب فيه الهموم والشدائد .

٣ ونت : فترت وضعفت . تطرقها : دخلها راجع ديوان البارودي ٢٢٨

٤ شكيب أرسلان (١٨٦٩ – ١٩٤٦ م) الملقب بأمير البيان ، أديب ناقد ، كاتب ، شاعر ، لغوي ، خطيب ، صحفي ، مؤرخ ، سياسي ، رحالة ولد بالشويفات من قري لبنان ودفن بها .

٥ ديوان البارودي : ص ٥٥١ .

فلئن لم نكـن بأرض فإنا لاتصال الهوى بدار مقـام
وائتلاف النفوس أصدق عهداً من لقاء يقترن بـدوام [1]

فقد مدح البارودي أرسلان بالخصال الحميدة ، والمناقب الذاكية الطاهرة العبقة ، وذكر أنه وإن لم يجمعهما نسب فقد ربط بيمهما رباط الأدب الذي يعد أقوى رابطة من لحمة النسب والقرابة ، وتلاقت أرواحهما ونفوسهما وإن تباعدت أجسامهما ، وائتلاف النفوس وتلاقيها أجل من تلاقي الأجسام الذي ربما لا يدوم ، بينما الأخر وهو تلاقي الأرواح والنفوس باق علي مر الزمان .

ولعل البارودي تصور تعجب الناس من حديثه عن الوداد الصادق بعدما طوف كثيراً حول الوداد المفقود وأنه لا وجود له في ذلك الزمان ، ومن ثم راح يقول :

ولولا أخ أحمدتُ في الود عهده علي حدثان الدهر ما كنت أستثني [2]
ورُبَّ بعيد الدار يصفيك وده ومقترب يجني عليك ولم تجن [3]
وما الود في القربى وإن هي أوجبت ولكنه في الطبع والشكل والوزن
إذا لم يكن بين الوديدين خُلَّة فلا أدب يجدي ولا نسب يدني
فـذاك أخ لولاه أنكرتُ كل ما سمعت به عن أحنف الحلم أو معن [4]
فإن لم أصرح باسمه خوف حاسدٍ يَنُمُّ عليـه فهو يعلم من أعني

---

١ ديوان البارودي : ص ٥٤٧ .
٢ حدثان الدهر : نوائب الزمان
٣ بعيد الدار هنا : الصديق الذي لا تربطك به علاقة رحم أو نسب .
أصفاه الود : أخلصه مقترب : القريب . يجني عليه : أجرم وأذنب في حقه .
٤ أنكر الشيء : جحده ولم يعترف به . الأحنف بن قيس عربي قديم ضرب به المثل في الحلم والأناة والمروءة والعزة توفي ٦٧ هـ .
ومعن هو أبو الوليد معن بن زائدة . اشتهر بالشجاعة والجود والكرم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، قتل علي يد الخوارج سنة ١٥١ هـ .

وهكذا فإن لم تكن الحياة كلها في نظر البارودي سوداء مظلمة ولم يكن الناس جميعهم يشتهرون بالغدر والملق والنفاق ، وإنما كانت هناك ومضات وإشعاعات وبصيص من وفاء وبقية من ود صادق علي النحو الذي تحدث عنه ، ووضحه في شعره فلكل قاعدة استثناء .

الفصل الثاني
الصداقة والصديق في شعر البارودي
دراسة فنية

** المبحث الأول :
الألفاظ والأساليب :

يعد البارودي من شعراء المدرسة الاتباعية (مدرسة البعث والإحياء) والتي من خصائصها : جزالة الألفاظ ومتانة الأسلوب والزهد في المحسنات البديعية ، وتقليد القدامي في المعاني والصور والمحافظة علي الوزن والقافية .

ومن ثم فقد رأينا ألفاظ البارودي تتميز بالقوة والجزالة والإيحاء والوضوح ، فالعبارات قوية واضحة لا غموض فيها ، والألفاظ موحية منتقاة ملائمة لمعانيها .

فنراه يختار ألفاظ الصدق والصداقة والمودة والإخاء والحب ، والوفاء ، والصاحب ، والحلم ، والرفعة ، والسماحة ، والخل ، والخليل ، والألفة وذلك عندما يرغب في صحبة الناس وهي ألفاظ هادئة موائمة للمعني الذي وضعت له .

أما عندما تشتد ثورته فنراه يحذر من الناس ومن لؤمهم وغدرهم وخداعهم مستخدماً الألفاظ المعبرة الموحية مثل (الناس أخلاس خدعة وتعادي ، جهم الضمير بالأحقاد ، ذئاب .. وذلك في قوله :

واحذر الناس ما استطعت فإن النا س أخلاسُ خُدعة وتعادي[1]
رب خل تراه طلق المحيا وهو جهم الضمير بالأحقاد
فتأمل مواقع اللحظ تعلم ما طوته صحائف الألباد
إن في العين وهو عضو صغير لدليلاً علي خبايا الفؤاد
وأناس صحبت منهم ذئاباً تحت أثواب ألفةٍ ووداد

---

١ أخلاس خدعة : ملازمون للخداع .

يتمنـون لـي العثـار ويلقو نـي بوجه إلي المـودة صادي[1]
فليموتوا بغيظهم فاحتمـال الـ ـغيط موت لهم بـلا ميعاد
كيف تبيض من النـاس وجوه صبغ اللؤم عرضهم بسـواد ؟
أظهروا زخرف الخداع وأخفوا ذات نفس كالجمر تحت الرماد [2]

ونلاحظ كثرة استخدام الشاعر لأفعال الأمر (واحذر ، فتأمل ، فليموتوا) الذي يدل علي الحث والتحذير الشديد .

وقد استمد الشاعر بعض تعابيره من القرآن الكريم مثل قوله : "(فليموتوا بغيظهم) " فهو مأخوذ من قول الله تعالى " قل موتوا بغيظكم "[3] وكقوله أيضا (كيف تبيض من الناس وجوه) فهو مأخوذ من قوله عز وجل :" يوم تبيض وجوه وتسود وجوه "[4]

ولعل قوله :

كيف تبيض من النـاس وجوه صبغ اللؤم عرضهم بسـواد ؟ [5]

دلالـة علـي أن اللـؤم تمكن منـهم ولا يرجي لهم صلاح فهم لؤماء مظهراً وجوهراً . وقد أفاد الاستفهام الذي صدر الشاعر به بيته النفي والاستبعاد والمعني لن تبيض وجوههم أبدا لأن اللؤم قد صبغ أعراضهم بصبغة داكنة السواد .

وقد غلف البارودي أبياته بالشعر الحكمي الذي يصدر عن تجربة وخبرة وتدقيق نظر ولعل ذلك كان من ضمن أساليب الإقناع التي كان يستخدمها الشاعر لتأكيد ما يقول .

---

١ صادي : عطشان .
٢ ديوان البارودي ص ١٥١ .
٣ آل عمران : من الآية (١١٩) .
٤ آل عمران : من الآية (١٠٦).
٥ ديوان البارودي ص ١٥١ .

" إن في العين وهو عضو صغير لدليلاً علي خبايا الفؤاد"[1]

وقد كثرة الحكمة كثرة واضحة في شعر البارودي مثل قوله :

إذا المرء لم ينصر أخاه بنفسه لدى كل مكروه فليس بصاحب[2]

وقوله :

لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشبُ [3]

وقوله :

ترفق فإن الرفق زين وقلما ينال الفتي بالعنف ما كان طالباً

إذا لم يكن للمرء عقل يرده إلي الحلم لم يبرح مدى الدهر عاتبا

وإن هو لم يفصح عن الخل إن هفا أقام وحيداً أو قضي العمر غاضباً[4]

وكذا قوله :

بلوت سرائر الإخوان حتى رأيت عدو نفسي من حبيبي

فلا تأمن علي سر صحابا فإنهم جواسيس العيوب [5]

وكما هو معروف أن الحكمة قول صائب في الحياة والأحياء صادر عن رجل حكيم مجرب يلخص عصارة تجاربه وكانت حكم البارودي تتداخل في الموضوعات الشعرية بمعني أننا لم نشعر أنها مقحمة علي الموضوع وإنما هي شديدة الاتصال بالموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر فإذا تحدث عن الوفاء نراه يصدر حكماً عن الوفاء وإذا تحدث عن الغدر نرى حكماً في الغدر وهكذا .

١ديوان البارودي ص ١٥١ .

٢ ديوان البارودي ص ٧٠ .

٣ ديوان البارودي ص ٧٤ .

٤ ديوان البارودي ص ٨١ .

٥ ديوان البارودي ص ٨٢ .

والملاحظ أن حكمة البارودي في شعره كانت مستقاة من القرآن الكريم ، ومن الحديث النبوي الشريف ، ومن مأثور أقوال السابقين من الشعراء وغيرهم .

شيء أخر أن البارودي أراد أن يقنعنا بتلكم الحكم فأشار في أكثر من موضع إلي أنها لم تكن وليدة اللحظة بل إنها تمثل خبرته الطويلة بالحياة والأحياء وذلك حتى يؤصلها في النفوس وتجد صداها في القلوب قبل الأسماع حيث يقول :

بلوت دهري فما أحمدت سيرته وذقت طعميه من خصب وإمحال

فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ولا فرحت بوفر بعد إقلال[1]

ويقول أيضاً :

فإني امرؤ جربت دهري وزادني به خبرة صبري علي الحلو والمر

بلغت مدى خمسين وازددت سبعة جعلت بها أمشي علي قدم الخضر [2]

ويقول :

ومن لم يؤمن حلو الزمان ومره فما هو إلا طائش اللب نافر[3]

وانظر إليه حيث يقول :

واختبر من شئت تعرفه فما يعرف الأخلاق إلا من فحص

هذه حكمة كهل خابر فاقتنصها فهي نعم المقتنص[4]

وكأنه يريد أن يقنعنا بما يقول لكثرة تجاربه وطول عمره وواسع خبرته .

---

١ ديوان البارودي ص ٤٤٨ .

٢ ديوان البارودي ص ٢٠٣ والخضر صاحب موسى عليه السلام وقصتهما في القرآن مشهورة .

٣ ديوان البارودي ص ٢٤٠ .

٤ ديوان البارودي ص ٢٩٨ .

ولعل هذا الأسلوب وهو التأكيد علي أنه رجل مجرب إحدى وسائل الإقناع التي كان يستخدمها البارودي للتأثير في المتلقي ليجد كلامه مدخله إلي القلوب والأفهام .

ويعد الاستطراد من الظواهر الأسلوبية في شعر الصداقة لدي البارودي ، ومن ذلك قوله محذراً من مصاحبة النمام :

واحذر النمـام تأمن كيده فهو كالبرغوث إن دب قرص [1]
يرقب الشـر فإن لاحت له فرصة تصلح للختـل فرص [2]
ساكنة الأطـراف إلا أنه إن رأي منشب أظفور رقص [3]

حيث كان من الممكن أن يكتفي البارودي بالبيت الأول وبه يتم المعني وهو التحذير من النمام ، ولكنه استطرد في وصف النمام زيادة في التنفير من مصاحبته .

ولعل هذا الاستطراد قد دفع بالبارودي إلي ظاهرة التكرار إذ وجدناه يكرر بعض المعاني مثل :

١ – الاختبار قبل الاختيار بمعني أنه يري وجوب التدقيق والفحص والنظر العميق قبل الحكم علي الأشياء فالحزم والصواب في التدقيق والفحص والتمحيص كلها وسائل مهمة لتستبين معالم الأشياء .

٢ – مداراة الناس .

٣ – الفخر بالوفاء والخبرة الواسعة .

٤ – ذم الزمان وأهله .

٥ – استحالة العثور علي الصديق الصدوق الوفي .

٦ – العلاقة بين أصل الإنسان وأخلاقه وطباعه .

---

١ قرص : لسع .

٢ فرص : انتهز الفرصة واغتنمها .

٣ منشب الأظفور : مجال الشر وموضع السعاية والنميمة مهما صغر . راجع الديوان ص ٢٩٨ .

٧- وغيرها من المعاني التي كررت كثير في شعر البارودي .

كذلك كان الاستفهام أحد الأساليب التي استخدمها البارودي في شعره الذي يدور حول الصداقة والصديق حيث يقول :

متى يجد الإنسان خلاً موافقاً يخفف عنه كلفة المتحفظ ؟
فإني رأيت الناس بين مخادع لإخوانه أو حاسد متغيظ [١]

والاستفهام هنا للاستبعاد وكأن البارودي يقرر بأن الصديق الحق طلب بعيد المنال ، وقد قدم أدلة الاستبعاد فكيف يجد الإنسان الصديق الوفي الذي يسانده وقت الشدة في حين أن الناس إما مخادع لإخوانه أو حاسد تمتلئ نفسه غيظاً وكمداً .

ومن ذلك أيضاً قوله :

يا للحماة أما في الناس من رجل واري الضمير له عقل به يتزن؟ [٢]
أكل خل أراه لا وفاء له ؟ وكل قلب علي اليومُ مضطغن؟ [٣]

فالاستفهام في البيت الأول للنفي وفي البيت الثاني للتعجب وكلاهما يؤكدان أن الصديق الوفي لا وجود له .

---

١ راجع الديوان ص ٣١٣ .
٢ واري الضمير : مرهف الإحساس .
٣ مضطغن : حاقد يضمر الضغينة . راجع ديوان البارودي ص ٦٤١ .

المبحث الثاني : المعاني

إذا كان البارودي قد حاكي القدماء وتأثر بالشعر القديم من حيث الشكل ، فإنه قد تأثر به أيضاً من حيث المضمون ، وهذا واضح من خلال الأغراض التي نظم فيها البارودي من مدح وهجاء وفخر ورثاء وغزل وحكمة ، وكلها أغراض تقليدية نظم فيها القدماء أشعارهم .

هذا علي المستوى العام ، أما علي المستوى الخاص فقد دارت معاني البارودي في شعر الصداقة والصديق حول :

- **حاجة المرء إلي الأصدقاء .**
- **الشكوى من غدر الناس .**
- **النظر إلي أصول المرء .**
- **الزهو والفخار بوفائه النادر وبكرم أصوله .**
- **المرء باللسان وبالقلب .**
- **اللسان والقلب هما مقياس الحكم علي الإنسان بالإضافة إلي العفة والعقل والأصل الذاكي .**
- **وجوب اختبار الناس قبل مصادقتهم .**
- **المداراة في معاملة الناس .**
- **رابطة الود ولحمة الأدب قد تكون أقوى من رابطة النسب .**
- **الطبع يغلب التطبع .**
- **اعتزال الناس خير من مخالطتهم .**
- **ندرة وجود الأصحاب أو الأصدقاء الأوفياء .**

وقد أتت كل هذه المعاني داخل الأغراض الشعرية التقليدية ولم يفرد لها البارودي قصائد مستقلة .

علي أن البارودي قد تأثر بالسابقين في هذه المعاني .

فإذا كان البارودي قد قال محذراً من الانخداع من المظاهر الخادعة البراقة للبشر :

فلا يغرنك من وجه بشاشته فالنار كامنة في ناخر السَّلم [١]

فإن المتنبي قد قال قديماً :

وكن علي حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثَغْرُ مبتسم [٢]

كذلك فإن المتنبي قال في نفس المعني يفرق بين ابتسامة الأسد وبروز أنيابه

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم [٣]

ويزيد المتنبي المعني وضوحاً وتأكيداً حيث يقول :

أعيدها نظرات منك ثاقبة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟ [٤]

فهو لا يلتبس عليه الورم بالشحم ، فالفرق بينهما في نظره الثاقب كالفرق بين الأنوار والظلم .

وإذا كان البارودي قد تساءل قائلاً :

يمن يثق الإنسان والغدر شيمة لكل ابن أنثى والوفاء عقيم ؟ [٥]

فإن أبا فراس تساءل قبله نفس السؤال حيث قال :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب ؟

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابا علي أجسادهن ثياب [٦]

حيث يتساءل أبو فراس كيف له أن يثق ببني البشر ، وقد تحول معظمهم إلي ذئاب ترتدي ثياباً يظهرون الود والصفاء ويضمرون الحقد والبغضاء .

---

١ ديوان البارودي ص ٦١٩

٢ شرح ديوان المتنبي : ط / مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢ م .

٣ شرح ديوان المتنبي ص ٢٦١ .

٤ المرجع السابق ص ٢٦١ .

٥ ديوان البارودي ص ٥٩٦ .

٦ ديوان أبي فراس الحمداني : ص ٤٢ تقديم وشرح عبد القادر محمد مايو ط / دار القلم العربي ، سوريا ، الطبعة الأولي ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

وقول البارودي في وجوب إخضاع الناس للاختبار قبل مصادقتهم :

وإياك والتسليم بالغيب قبل أن ترى حجة تجلو بها غامض الأمر
فقد يغدر الوفي لهفوة ويحلو الرضا بعد العداوة والشر [1]

مأخوذ من قول النجاشي الحارثي [2]

إني امرؤ قل ما أثني علي أحد حتى أري بعض ما يأتي وما يذر
لا تمدحن امرأ حتى تجربه ولا تذمن من لم يَبْلُهُ الخبر

فلا ينبغي الإعجاب بأي إنسان مهما كان واتخاذه صديقاً إلا بعد أن تستبين أخلاقه وطبائعه ، ولن يكون ذلك إلا عن طريق التجريب والاختبار .

وها هو ذا دعبل الخزاغي يصف أخلاق الناس فيقول :

ومن الناس من يحبك حبا ظاهر الود ليس بالتقصير
وإذا ما خبرته شهد الطر ف علي حبه بما في الضمير
وإذا ما بحثت قلت : بهذا ثقة لي ورأس مال كبير
فإذا ما سألته ربع فلس ألحق الود باللطيف الخبير [3]

وفي موضع أخر يضيف دعبل فساد طبائع الناس بعد أن صهرهم في بوتقة التجارب فيقول :

قد بلوت الناس طرا لم أجد في الناس حرا
صار أحلي الناس في العي ش إذا ما ذيق مرا [4]

فكم من أناس تجذب ظواهرهم الأنظار ، ويدّعون المودة والإخاء ، والصدق والوفاء ، فإذا ما اختبروا ظهرت حقيقتهم وصار ما يدعونه هباء.

---

١ ديوان البارودي ص ٢٠٣
٢ شاعر جاهلي قديم من المعمرين ، اسمه قيس بن عمرو بن مالك ، راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٣٢ .
٣ ديوان دعبل بن علي الخزاعي : تحقيق د / إبراهيم الأميوني ط / دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولي (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) ص ٨٦ .
٤ المرجع السابق ص ٧٩

وفي هذا المعني يقول الحسين بن مطير الأسدي [١] مؤكداً علي أنه لا يعرف حقيقة الصديق إلا بعد الاختبار :

تقلبت في الإخوان حتى عرفتهم ولا يعرف الإخوان إلا خبيرها
فلا تك مغروراً بمسحة صاحب من الود لا تدري علام مصيرها

وقول البارودي عن المداراة والمصانعة في معاملة الناس :

مداراة الرجال أخف وطئاً علي الإنسان من حرب الفساد [٢]

وكذا قوله في نفس المعني :

ومن لم يدار الناس عاداه صحبه وأنكره من قومه من يسوده [٣]

مأخوذ من قول الشاعر العربي القديم

ومن لم يصانع من أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم [٤]

والمعني أنه علي المرء أن يداري الناس ويجاملهم في أمور كثيرة ، وإلا لحقه الذل والإساءة .

وقول البارودي في تأثر الفروع بالأصول :

كل امرئ تابع أعراق نبعته والخير والشر أنساب وأرحام [٥]

إنما هو مأخوذ من قول أبي العتاهية :

هي الأعراق بالأخلاق تنمو بقدر أصولها تزكو الفروع [٦]

---

١ هو الحسين بن مطير بن مكمل ، وهو مولي لبني أسد ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ... راجع ترجمته في الأغاني ١٤ / ١١٠ ، ومعجم الأدباء ١٠ / ١٦٦ وطبقات بن المعتز ١١٤ وفوات الوفيات ١ / ٢٨٥ ، وخزانة الأدب ٣ / ٤٨٥ .

٢ ديوان البارودي ص ١٨٧ .

٣ ديوان البارودي ص ٢٠٣ .

٤ ديوان زهير بن أبي سلمي : شرح وتقديم علي حسن فاعور ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولي (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ص ١١٠ .

٥ ديوان البارودي ص ٥٧٧ .

٦ ديوان أبي العتاهية : ط/ دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م) ص٢٥٩.

كذلك فإن زهير ابن أبي سلمي يعد عامل الوراثة هو الأهم في تكوين الأخلاق حيث يقول :

فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجة وتغرس إلا في منابتها النخل [1]

ومثله قول النجاشي :

خلائق فينا من أبينا وجدنا كذلك أطيب الفرع ينمي علي الأصل

وهكذا كان البارودي في شعر الصداقة والصديق ، يدور في معانيه في فلك معاني الأقدمين وإن كانت له بصماته ولمحاته التجديدية .

المبحث الثالث: الصور والأخيلة

كانت شاعرية البارودي وحواسه المرهفة وتذوقه للجمال تدفعه إلي قول الشعر ووصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكنه يخرجها ملونة بلباس جديد لتمثل شخصيته وشعوره وأفكاره [2] .

حيث وصف مظاهر الطبيعة وجعلنا نحس بقوة الرعد وعزف الرياح وتأبيب المطر ، ووصف النجوم وجمالها ووصف السحاب الممطر والبرق والرعد وتأثيرها في الإنسان والأرض ، كما وصف البحر الهائج والريح العاتية تعلو الموج فتخيله جبالاً شامخة الذري ، كما وصف الجبال والغابات وبالجملة فهو مصور ماهر في وصف الطبيعة .

ومن أبرز ما برع فيه البارودي وصف الأشخاص حيث بدا البارودي مصوراً ماهراً وهو يصف دخائل النفوس وأسرار القلوب والحركات والإشارات وذلك حين وصف البلغار في بلادهم بقوله :

بلاد فيما ما بالجحيم وإنما مكان اللظى ثلج بها وجليد
تجمعت البلغار والروم بينها وزاحمها التاتار فهي حشود

---

١ ديوان زهير ابن أبي سلمي ص ٥١ والوشيج : هو القنا الملتف وهو جمع وشيجة.
٢ راجع / في الأدب الحديث : عمر الدسوقي ط / دار الفكر العربي الطبعة الأولي ١ / ١٩٧ .

إذا راطنوا بعضهم سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد
قباح النواصي والوجوه كأنهم لغير أبي هذا الأنام جنود
لهم صور ليست وجوها وإنما تناط إليها أعين وخدود

حيث وصف البارودي رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح رؤوسهم ووجوههم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهة لدرجة كبيرة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يريد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هي صور وضعت فيها أعين وخدود .

ويبلغ البارودي قمة الإبداع في قوله يذم شخصاً ويصفه بالنهم والجشع :

وصاحب لا كان من صاحب أخلاقه كالمعدة الفاسدة
أقبح ما في الناس من خصلة أحسن ما في نفسه الجامدة
لو أنه صور من طبعه كان لعمري عقربا راصدة
يصلح للصفع لكي لا يري من عدد الناس بلا فائدة
يغلبه الضعف ولكنه يهدم في قعدته المائدة
يراقب الصحن علي غفلة من أهله كالهرة الصائدة [1]

وصور البارودي الشعرية في الصداقة والصديق تتسم بصدق الإحساس ، ورقة العاطفة ، وتمثل طموحاته وتجاربه الحياتية .

وما أروع قول البارودي يصف أخلاق الرجال :

ألا إنما أخلاق الرجال وإن نمت فأربعة منها تفوق علي الكل
وقار بلا كبر ، وصفح بلا أذي وجود بلا من ، وحلم بلا ذل [2]

وقد ظهرت تلكم الروعة في أسلوب التقرير والتصوير الذي سلكه الشاعر ، حيث حصر صفات الكمال في الرجال في أربعة صفات ، وقار وصفح ، وجود وحلم ليس علي الإطلاق ، وإنما قيد تلكم الصفات بصفات أخرى تزيدها جمالاً فوق الجمال وكمالاً فوق كل كمال ، فالوقار بلا كبر حيث

---

١ الديوان : ١ / ٢١٤ .
٢ ديوان البارودي ص ٤٩١ .

الرزانة بغير كبر ولا عظمة ممقوتة وقار بغير تجبر ، وصفح من غير أذى ولو كان ضرراً خفيفاً ، وجود وبذل وعطاء من غير من ولا فخار ، وحلم وصبر وأناة من غير ذل ولا ضعف ولا هوان .

واقرأ إن شئت قول البارودي :

أضعت زماني بين قوم لو أن لي بهم غيرهم ما أرهقتني البوائق
معاشر سادوا بالنفاق وما لهم أصول أظلتها فروع بوائق
فأعلمهم عند الخصومة جاهل وأتقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر ونغمة ود بينها الغدر ناعق[1]

حيث يصور عذر الناس ولؤمهم وتفشي النفاق فيهم وتأصل الشر فيهم وإضمارهم الحقد والضغينة بينما يظهرون البشر والود ... ولاحظ أن الشاعر استخدم الطباق في رسم صورته الشعرية (أصول ، فروع) و(أعلمهم وجاهل) و (أتقاهم وفاسق) و (طلاقة الوجه والغيظ الكاشر) و(الود والغدر) .

وما أجمل قول الشاعر (نغمة ود بينها الغدر ناعق) والنعيق صوت الغراب والمراد أن غدرهم ظاهر محسوس .

وفي موضع آخر يغالي البارودي في سخطه علي الناس ، ويندد بهم قائلاً :

فما الناس إلا حاسد ذو مكيدة وآخر محني الضلوع علي دخل
تباع هوى يمشون فيه كما مشى وسُمَّاع لغو يكتبون كما يملي[2]

حيث حصر الشاعر الناس في فريقين حاسد كائد ، ومعيب فاسد الطوية ، فقد خلع علي الإنسان كل ما تحويه كلمات الحسد والكيد من المساوئ والنقائص والعيوب .

---

١ ديوان البارودي ص ٣٧٧ .
٢ ديوان البارودي ص ٤٤١ .

وهذا الأسلوب التقريري الذي استخدمه البارودي في التصوير أسلوب اكتسبه من الواقع المعاش فهو يرسم صورة حقيقية عاشها ، وخبرات مر بها ، لذا كان كلامه ينهج نهج التقرير والقطع الذي لا جدال فيه .

ويوضح الشاعر الصورة ويقربها إلي الأفهام حين يضرب المثل ويتخذ من الطبيعة شاهداً حيث يقول :

ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة بين الأنام فليس النبع كالضال [1]

حيث يحذر البارودي من الانخداع بالمظاهر والأشكال والمماثلة بين الناس فهم مختلفون كاختلاف النبع والضال ، والنبع شجر ينبت في الجبل تتخذ القسي والسهام ، رزين ثقيل ، فيه صلابة وشدة واحدته نَبْعَة ، والضال ، السدر البري وهو شجر النبق وهو شجر فيه مرونة ولين ، والبنع أقوى من الضال وأصلب عودا ، فهما وإن تشابها في الصورة إلا أنهما يختلفان في الجوهر من حيث القوة والصلابة ، كذلك الناس فإنهم يتشابهون في خلقتهم ولكنهم يختلفون في أخلاقهم وطباعهم .

ولقد وظف البارودي كغيره من الشعراء الصورة الشعرية المعروفة لدى القدماء ذات الطابع الحسي المادي وتتمثل في الاستعارة ، ومن أمثلتها قوله يعرض برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العرابية .

لأي خليل في الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خب منافق
بلوت بني الدنيا فلم أر صادقا فأين لعمري الأكرمون الأصادق ؟
معاشر سادوا بالنفاق وما لهم أصول أظلتها فروع بواسق
فأعلمهم عن الخصومة جاهل وأتقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر ونغمة ود بينها الغدر ناعق

ففي قوله " طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر " استعارة حيث استعار الشاعر صفة التكشير للغيظ وهي خاصة بالأسد ليقرب حالة المهجو المتصف بالغدر والخديعة إلي المتلقي ، وكذلك قوله " نغمة ود تحتها الغدر ناعق " حيث

---

١ ديوان البارودي ص ٤٥٤ .

أضاف صفة " ناعق " الملازمة لطائر من الطيور للغدر حتى يقرب الصورة إلي الأفهام ويوضحها في أذهان المتلقين عن طريق التصوير المادي المحسوس بهدف التأثير فيهم ودفعهم للتفاعل مع مواقفه وتأييدها .

وكان للجمل الفعلية أثرها في رسم الصورة الشعرية (بلوت بني الدنيا ، أضعت زماني ، أرهقتني البوائق) وهي تضفي علي القصيدة حركية وتفاعلا تتمثل في فعل الشاعر من جهة (لاقيت ، أضعت ، علمت) وفعل الخصم من جهة أخرى (خب ، منافق ، سادوا ...) ثم الجمل الاسمية مثل (معاشر سادوا ، طلاقة وجه ، أخلاق صبيان) التي تضفي صفة الثبات والتأكيد علي مواقف الشاعر .

كذلك فإن الجمل الخبرية والجمل الإنشائية التي استخدمها الشاعر في قصيدته كانت إحدى وسائل رسم الصورة حيث تداخلت هذه الأساليب وتناغمت لتبرز الصورة وتؤكدها وتقررها في أذهان المتلقين .

هذا بالإضافة إلي أسلوب الطباق الذي استخدمه الشاعر (فأعلمهم ... جاهل) و (أتقاهم ... فاسق) ومعروف أن التضاد يؤكد المعني ويجلي الصورة في النفوس .

ولا يخفي علي أحد أن البارودي كان متأثراً في صوره بالقديم ، ولم لا وهو باعث الشعر القديم الذي أحياه من جديد ورائد مدرسة التقليديين في الشعر العربي الحديث ، وعلي الرغم من ذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل خصوصية التجربة الشعرية عند البارودي وتفردها من حيث هي انعكاس لظروف عصره ومحنته الذاتية وتمزقه النفسي في عالم يموج بالمتناقضات والملق والنفاق والغدر ، هذا التمزق الذي بلغ قمته في شعر الصداقة عند شاعرنا البارودي.

ومن ثم وجدنا في شعر البارودي التطابق بين صدق المعاناة وصدق التعبير .

الأمر الذي حدا بالدكتور هيكل أن يقول عن البارودي : " كانت محاكاته الأقدمين جديدة وكانت معارضته لهم جديدة ..... " [١]

وقد أصاب العقاد حين قال :

" قد ترى للمقلد نفحة من استقلال الشخصية لا تراها للشاعر المبتكر في أكمل الصور التي تكمل فيها الحرية الفردية " [٢]

مما يؤكد أنه كانت للبارودي لمساته الفنية وبصماته التجديدية حتى وهو يحاكي الأقدمين في موضوعاتهم وأساليبهم وصورهم .

المبحث الرابع : التشكيل والموسيقي

اتفق أكثر القدماء علي أن الشعر يقوم علي أربعة أركان ، وهي اللفظ ، والوزن ، والمعني ، والقافية فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر ، لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن [٣]

ويرون أن الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها خصوصية [٤] ويري بعضهم أن القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ولا يسمي شعراً حتى يكون له وزن وقافية [٥]

وتعريف الشعر بأنه كلام موزون مقفى يلفت النظر إلي ركن مهم وضروري ولازم للشعر وهو ركن الموسيقي التي تتمثل في الأوزان من ناحية وفي القوافي من ناحية أخرى .

---

١ مقدمة ديوان البارودي لهيكل ص ٢٩ .

٢ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي – عباس العقاد ط / دار النهضة المصرية (١٩٧٠ م) ص ١٢٠ .

٣ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق محمد عبد القادر احمد عطا، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى(١٩٨١م) ص ١١٩ .

٤ المرجع السابق ص ١٣٤ .

٥ نفسه ص ١٥١ .

والقصيدة العمودية التقليدية هي التي يراعي فيها صاحبها النظم علي غرار شعر الجاهليين وشعراء صدر الإسلام ومن بعدهم من حيث التزام الوزن والقافية .

وكان شاعرنا البارودي أحد رواد مدرسة البعث والإحياء والمحافظين علي النهج الموروث للقصيدة العربية القديمة ، حيث سار البارودي في ديوانه علي الأوزان التقليدية المعروفة باستثناء قصيدة واحدة من وزن مخترع لا عهد للعروضيين به وجاءت في تسعة عشر بيتاً ، منها :

املأ القدح واعص من نصح
وأرو غلتي بابنة الفرح
فالفتي متى ذاقها انشرح [1]

ولقد كان البارودي يحافظ علي التكرار الصوتي في شعره من خلال الأوزان والقوافي فالالتزام بقافية واحدة ، وبحر واحد ، يحدث بهما الشاعر إيقاعاً صوتياً واحدا في القصيدة جميعها .

وعلي سبيل المثال قوله :

لأي خليل في الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خب منافق
بلوت بني الدنيا فلم أر صادقاً فأين لعمري الأكرمون الأصادق؟
أحاول أمراً قصرت دونه النهي وشابت ولم تبلغ مداه المفارق [2]

فقد اختار الشاعر بحر الطويل الممتد الذى يتناسب والمواضيع الجادة كالقصيدة التي بين أيدينا.

هذا بالإضافة إلي حرف الروي (القاف) الشديد القوي المتصف بالجهر والمتحرك بالضم الذي أضفي صفة الإطلاق علي القافية التي تعبر عن نفسية الشاعر التي اتسمت بالحرية والانطلاق في التعبير عما يخالجها من هموم وأحزان.

---

١ ديوان البارودي ص ١١١ وراجع موسيقي الشعر لإبراهيم أنيس .
٢ ديوان البارودي ص ٣٧٦ .

هذا بالإضافة إلي الإيقاع الداخلي التي تحدثه الأصوات المتكررة القاف، واللام، والفاء ، والنون ، والتاء في القصيدة .

والحق يقال : إن البارودي اهتم اهتماماً بالغاً بالإيقاع الداخلي في شعره تماماً كاهتمامه بالإيقاع الخارجي .

ومن ذلك التصريع وهو عبارة عن اتحاد العروض في البيت الأول مع الضرب في التفعيلة ، فإن كانت الضرب مفاعلين جعلت العروض مفاعلين وإن كانت الضرب فعولن جعلت الضرب فعولن وهكذا .

ومثاله قول البارودي :

من خالف الحزم خانته معاذره ومن أطاع هواه قلّ ناصره [١]

وقوله :

أليس من العدل أن تسمعا فأشكو إليك نموما سعي ؟ [٢]

وقوله :

قليل بآداب المودة من يفي فمن لي بخل أصطفيه واكتفي ؟ [٣]

وقوله :

لأي خليل في الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خب منافق [٤]

وكان البارودي يكرر التصريع في القصيدة الواحدة مثل قوله :

وصاحب رعيت دهراً وداده ولم أبـاين نهجه وقصده

---

١ ديوان البارودي ص ٢٦٨ .
٢ ديوان البارودي ص ٣٢٥ .
٣ ديوان البارودي ص ٣٤٣ .
٤ ديوان البارودي ص ٣٧٦

وكنت أرعي بالمغيب عهده بل كنت أخشي أن أعيش بعده
وطالما أرغمت فيه ضده وذدت عنه ما يعوق وَكْدَهُ [1]
حتى إذا ما الدهر أوري زنده صَعَّر لي بعد الصفاء خدَّهُ [2]

حيث تلاحظ التشابه بين أواخر الأشطر الأولي ونهايات الأشطر الثانية مما أحدث نغماً موسيقياً هائلاً ارتاحت له النفس .

ومن الموسيقي الداخلية في شعر البارودي ذلك التناسب بين الكلمات والجمل والمقاطع مثل قوله :

كن كما شئت يا فلان وما شا ءت رجال فأنت للؤم أهل
فوجهك منحوس وكعبك سافل وقلبك مدغول وعقلك مُختل
فما نكبه إلا وأنت رسولها ولا خيبة إلا وأنت لها أصل [3]

فأنت تلاحظ التناسب بين بعض الكلمات في الأبيات مثل (وجهك، كعبك ، عقلك ، منحوس ، مدغول ، نكبة ، خيبة) مما أحدث تناسباً صوتياً .

ومثال ذلك أيضاً قوله :

غَنِيتُ عما يهين النفس من عَرَض فما عليَّ لحي في الورى مِنَنُ [4]
لكنني بين قوم لا خلاق لهم إن عاقدوا غدروا أو عاشروا دهنوا [5]
تَغَيَّر الناس عما كنت أعهده فاليوم لا أدب يُغْني ولا فطن
فالخير منقبض والشر منبسط والجهل منتشر والعلم مندفن

حيث ناسب الشاعر بين قوله : (عاقدوا ، عاشروا ، غدروا ، دهنوا ، الخير ، الشر ، منقبض ، منبسط ، الجهل ، العلم ، منتشر ، مندفن) .

---

١ الوكد بمعني القصد .
٢ أوري الدهر زند فلان : كناية عن أنه أسعده . صعر خده : أماله بعيداً عنه كبراً واستهانة بالغير .... راجع ديوان البارودي ص ١٧٤
٣ ديوان البارودي ص ٥٠٤
٤ المنن : جمع منه بكسر الميم : الصنيعة والإحسان .
٥ قوم لا خلاق لهم : مجردون من الفضائل . دهنوا : خدعوا .

وهذا التناسب من الموسيقي الداخلية التي تهز المشاعر وتجذب الوجدان يسمي في عرف البلاغيين بحسن التقسيم وهو تقسيم البيت إلي جمل متساوية في الطول والإيقاع ومن شأنه أن يحدث نغماً موسيقياً يطرب الآذان .

** الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبعد فقد تم بحثنا هذا وعنوانه " الصديق في شعر البارودي بين الواقع والخيال " وقد وقفنا من خلاله علي ما يلي :

١- إن موضوع الصداقة والصديق من أبرز الموضوعات الشعرية التي عالجها البارودي .

٢- إن البارودي تحدث عن هذا الموضوع من كل جوانبه حيث تحدث عن مفهوم الصداقة والصديق الوفي وملامحه والشروط الواجب توافرها في الصديق ، ومواقف الصديق والصداقة وما يعتورها من التقلب والتغير .

٣- أوضح البارودي أن التماثل والتوافق في الطباع هو القاعدة الأساسية في اختيار الصديق ، وأن هذه العلاقة قد تجاوزت العلاقات القديمة مثل الدم والقبيلة والمواطنة والقومية إلي كونها مسؤولية كبيرة يجب أن يتنبه المرء علي خطرها وأن يحتاط لها ، وأن يدقق في اختيار أصدقائه حيث بين البارودي واجبات الصديق تجاه صديقه لتدوم هذه العلاقة الإنسانية الجميلة .

٤- أن موضوع الصداقة والصديق قد تخلل الأغراض الشعرية القديمة في شعر البارودي في جميعها ، حيث لم يخل غرض شعري لدى البارودي إلا وتخلله الحديث عن الصديق .

٥- أمعن البارودي في التحذير من الناس ، فإنهم – في نظره – مرضي القلوب ، وتماثيل بلا عقول ، وألفاظ بل معان هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لاختلاط الغث بالثمين ، حيث اختلطت الأمور ، وأصبح البارودي لا يكاد يعرف اللئيم من كريم الأصل ، مما يدل علي غلبة اللؤم وفساد الطباع عند معظم الناس كثرة طاغية لدرجة لا تستبين معها الحقائق .

٦- كان البارودي يعدد في موضوعاته داخل القصيدة الواحدة ، أو قل يمزج الحديث عن الصداقة بكل أغراضه الشعرية ففي ميدان الغزل ، وجدناه

يتحدث عن الفخر ثم عن الوشاة والحب وإفسادهم بين المتحابين ، ثم انتقل من ذلك إلي الأصدقاء ، ولم نكد نشعر بتعدد الموضوعات .

٧- وفي ميدان الرثاء نرى البارودي يمدح المرثي بأنه كان يعاشر الناس بالحسنى ، حمولاً صبوراً ، عفيف النفس ، عف اللسان ، كاظماً لغيظه ، يعفو عن الناس ، صديقاً مخلصاً وفياً ، لا عيب فيه ، يفي بالعهد ، ولا يغدر ، صادق القول ، يطابق فعله قوله ، بعيداً كل البعد عن الملق والنفاق ، وغيرها من الخلال الطيبة التي تفوح شذاها بين البشر وتبقي أثارها بين الناس . وهكذا كان البارودي في بقية الأغراض الشعرية ، حيث كان يطوعها جميعها للحديث عن الصداقة والصديق .

٨- إن البارودي لم يقتصر علي الجانب المظلم فحسب ، في ميدان الصداقة وإنما تعداه إلي الجانب المشرق ، فإذا كان قد ذكر الغدر والملق والكذب والخداع والتلون فإنه قد ذكر في الوقت نفسه الوفاء وكرم الأصول ، وصدق الوعود والعهود ، وذكر لنا جانباً من أصدقائه الأوفياء .

٩- كان البارودي دائم الفخر بالصفات النفسية والخلقية حيث افتخر بصفاء النفس ، وسلامة الصدر من الغل والحسد والمخادعة والمخاتلة ، وأنه يتميز بالنصح للناس والاستقامة ، بينما غيره يغش ويراوغ ويخاتل ويخدع ويحقد ويحسد وتمتلئ نفسه غيظاً وكمداً ، ولعل ذلك كان سر شقائه لأنه راح يوازن بين وفائه ووداده ، وصدقه ، ومراعاته لحقوق الأخوة والصداقة وبين غدر غيره .

١٠- كان البارودي في كل الأحوال يحاول إقناعنا بما يذهب إليه من آراء في الحياة والأحياء والصداقة والأصدقاء عن طريق التأكيد علي أنه رجل مجرب خبر الحياة بكل تصاريفها وأنه صاحب تجارب كثيرة وخبرات واسعة .

١١- تميزت ألفاظ البارودي في شعر الصداقة بالقوة والجزالة ، والإيحاء والوضوح ، والموائمة للمعني المراد التعبير عنه .

١٢- شاع أسلوب المبالغة في شعر الصداقة لدى البارودي شيوعاً بارزاً .

١٣- أكثر البارودي من ضرب الحكمة في شعر الصداقة مستخلصاً العبرة والمثل من تجاربه في تلك الحياة .

١٤- شيوع ظاهرة التكرار في شعر الصداقة لدى البارودي يستوي في ذلك التكرار في الألفاظ أو التكرار في المعاني .

١٥- تأثر البارودي في ألفاظه ومعانيه وأساليبه وصوره وموسيقاه بالأقدمين ، غير أنها تتسم بصدق الإحساس ورقة العاطفة وتمثل طموحاته وتجاربه الحياتية ، ومن ثم وجدنا في شعر البارودي التطابق بين صدق المعاناة وصدق التعبير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- أسس النقد الأدبي عند العرب : د/ أحمد بدوي ، ط/دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، د/ت .
- الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق د/ إحسان عباس،ط/ دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة(١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- البصائر والذخائر : لأبي حيان التوحيدي ، تحقيق د/ وداد القاضي ، ط/ دار صادر بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- الحماسة :لأبي عبادة البحتري، شرح / محمد رضوان ديوب ، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) .
- دع جسدك يتكلم بالنيابة عنك : هارفى بلومون ، ط / مكتبة الهلال (٢٠١٠ م) .
- ديوان أبي فراس الحمداني ، تقديم وشرح/ عبد القادر محمد مايو، ط/ دار القلم العربي ، سوريا ، الطبعة الاولى ، (١٤٢١هـ /٢٠٠٠م).
- ديوان البارودي : تحيق وشرح / على الجارم ومحمد شفيق معروف ، ط/ دار العودة ، بيروت(١٩٨٨م) .
- ديوان الشنفرى : تحقيق وشرح د/ إميل يعقوب ، ط/ دارا لكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)
- ديوان دعبل بن على الخزاعي : تحقيق د/ إبراهيم الأميوني ، ط / دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى(١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح وتقديم / على حسن فاعور ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى(١٤٠٨/ ١٩٨٨).
- شرح ديوان المتنبي : لنخبة من الأدباء ، ط/ دار مكتبة الحياة ، بيروت(١٩٩٢م).

- شعر الحسين بن مطير ألأسدي : جمع وشرح وتقديم د/حسين عطوان، ط/ دار الجيل ، بيروت ،د/ت .
- الشعر والشعراء : لابن قتيبة : تحقيق وشرح أحمد مجمد شاكر، ط/ دار المعارف بمصر ، د/ت .
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى : عباس محمود العقاد ،ط/ دار النهضة المصرية (١٩٧٠م).
- الصحاح : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق / أجمد عبد الغفور عطا الجزء الثالث ، ط/ دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة (١٩٩٠م) .
- العقد الفريد: لابن عبد ربه : تحقيق وشرح / أحمد يسرى العزباوي ، ط/ دار الإمام على بالقاهرة ، الطبعة الأولى (١٩٩٢م).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني ، ط/ دار الجيل ، بيروت، الطبعة الرابعة(١٩٧٢م).
- في الأدب الحديث : د/ عمر الدسوقي ، ط/ دارا لفكر العربي ، الطبعة الأولى .
- لسان العرب: لابن منظور : تحقيق / عبد الله على الكبير ،وآخرين، ط/ دار المعارف بمصر، د/ت .
- لغة الجسد : آلان باربارا بييز ، ط/ مكتبة جرير (السعودية) ، الطبعة الرابعة (٢٠٠٩م) .
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: عبد الله الطيب المجذوب، ط/دار الفكر العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية(١٩٧٠م).
- المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني ، الجزء الثاني ،ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز .
- موسيقى الشعر العربي: لإبراهيم أنيس ، ط/ دار مكتبة الانجلو المصرية(١٩٧٨م).